جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

النبي ﷺ في مقالات من "وحي القلم" للرافعي
مقاربة روائية في بناء الشخصية
تحليل ونقد

الدكتور
كمال سعد محمد خليفة
أستاذ الأدب والنقد المساعد كلية البنات الإسلامية بأسيوط
جامعة الأزهر

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

مقدمة

"إذا قيل ما الأدب؟، فاعلم أنه لابد معه من البيان؛ لأن النفس تَخْلُق فتصوِّر فتُحسن الصورة، وإنما يكون تمام التركيب في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته، بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئا مسمى أو متميزا بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئا تاما ولا صحيحا ، وما بُدٌّ من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها....(١)" .

"أما الغرض الأول من الأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها ... وأن يلقي الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويرد القليل من الحياة كثيرا وافيا بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ثابتا قارًّا بما يخلِّد من وصفه ، ويجعل المؤلم منها لَذًّا خفيفا بما يبث فيه من العاطفة ، والمملول ممتعا حلوا بما يكشف فيه من الجمال والحكمة...(٢)".

"وأشواق النفس هي مادة الأدب ؛ فليس يكون أدبا إلا إذا وضع المعني في الحياة التي ليس لها معني ، إذ كان متصلا بسر هذه الحياة ، فيكشف عنه أو يومئ إليه من قريب ، أو غير للنفس هذه الحياة تغييرا يجيء طباقا لغرضها وأشواقها ... ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلى حياة أخري فيها شعورها ولذَّتها، حياة كملت فيها أشواق النفس ؛ لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف...(٣)".

" .. في عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافا إليها الفن، ويجيء التعبير مزيدا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودَقِّها الموسيقي؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن

---

(١) وحي القلم ص :٣/ ١٧٠ مصطفى صادق الرافعي ــ بتحقيق : سعيد كريم الفقي ــ مكتبة الإيمان ــ دت ــ المنصورة .
(٢) السابق ص : ٣/ ١٧١ .
(٣) السابق ص: ٣/ ١٧١ .

معًا؛ وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها...(٤)" .

بهذه السيمفونيات (المقاطع النثر شعرية) ــ إن جاز التعبير ــ يعزف الرافعي على قيثارته أهازيج الجمال، تطفر بآيات الحسن والإلهام وأمارات العبقرية، في تشكيل رؤيته عن الأدب ووظيفته في الحياة، في الوقت الذي وظفه كثير من معاصريه لإثارة النعرات، وتصدير الحماقات، والعزف على الغرائز والشهوات، بل وسلَّه بعضهم سيفا؛ لبتر ما يصل الأمة بتراثها ولغتها ودينها، وهدم حصون أصالتها، وإراقة دماء عراقتها علي مذبح الهكيل الذي تعبَّدُوه؛ التجديد والتحديث!!.

كان الرافعي مختلفا بين أدباء عصره ومفكريه ، فذهب يتحرك في إطار رؤية تسعى لأن يكون الأدب الجديد الذي يدعونه " حقيقة مسكونة بالهم العربي والألوان العربية، وبالصراع الذائب من أجل إيجاد الكائن العربي، والعصر العربي(٥)".. من ثم، راح يحفز العرب إلي إحياء ماضيهم، وصيانة تراثهم، والاعتداد بذواتهم، والانعتاق من الانسحاق تحت بريق التقدم، أو السقوط في الانهزامية، أمام الأنموذج الوافد، مع الاستفادة من معطياته الحضارية، والتناسل معها بالقدر الذي لا يهدر خصوصيتنا وقدراتنا ، ومعطياتنا الحضارية والإنسانية، التي ليس لغير الأدب أن يجليها في إبداعه الأصيل، "إذ الأدب يشبه الدين: كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب،...(٦)" .

بهذه الرؤية الحضارية يحاول الرافعي أن يشرع بابا للإبداع الأدبي صوب الجمال والحسن بمفهومهما الشامل العام، الذي يدفعنا نحو التعلق بهذه الطاقات الإبداعية، التي تفرزها تجارب الأدباء المخلصين لحرفة الأدب، ولتصور إنساني أصيل، يحدب على فرادة الإنسان الحضاري، المتفاعل مع المجتمع، والمتماس مع

---

(٤) وحي القلم ص :٣/ ١٧٢ .
(٥) عمالقة عند مطلع القرن ص: ١٢٥ عبدالعزيز المقالح ــ منشورات دار الآداب ــ أولى ــ ١٩٨٤م ــ بيروت .
(٦) وحي القلم ص: ١٧٤/٣ .

همومه وقضاياه، والمشتبك مع آلامه وآماله ، يفرز من تجاربه ، وخبراته ، وثقافته، ورؤيته ، ويطرح من خياله ما يحيل كل ذلك إبداعا متفردا ، ومتحركا نحو البناء والإمتاع ، ومتحررا من كل ما يعيق انطلاقته الكبرى نحو الآفاق التي تتصل فيها وعبرها الأرض بالسماء . فالأدب كما يقول الرافعي : خالق الجمال في الذهن، والمُمَكِّن للأسباب المعينة على إدراكه ، وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذي يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية ، بإضافة الصور الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة ، وصولة الغريزة ، وغرارة الطبع الحيواني...(٧) " .

كل هذه القيم الإنسانية والجمالية التي يسعى الرافعي إلى أن يفرزها عبر خلايا الجمال التي تفرزها مَلِكَاته / مَلَكَاته الإبداعية ، جعلتني منذ وقت مبكر أرنو إلى أدب الرافعي لكني كنت متهيبا أن تطأ قدمي تلك البكارة البيانية والغضارة الأدبية ، على النحو الذي كنت عهدته مع غيره من الأدباء !! ، لكنى تجاسرت ، ودبجت مقالا مطولا عن ريادته للأدب الإسلامي ، في مطلع الدعوة إلى تشكيل رؤية إبداعية جديدة للأدب ، تتخذ من الإسلام تصورًا أو رؤية ، تشكل تجاربه الإبداعية، أرسلت به إلى إحدى المجلات السيارة(٨) ــ وقتئذ ... وفوجئت بنشره!! مما أثلج صدري ، وأمدني بثقة كنت أفتقدها قبل تلك المفاجأة !، مما حمَّلني مسئولية نحو هذا الأديب وأدبه ، وجدت دَيْنًا عليَّ أن أوديه متى ما سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ... فكان التفكير في هذه الدراسة ...

طالعت كثيرا من الدراسات حول أدب الرافعي ، التي عنيت كثيرا ببيانه ورصانته، وأصالة طرحه الإبداعي ، لكني وجدت زاوية أردت أن أنفذ منها إلى أدبه، ربما لم تطأها قدم بعد !! . وهي أن أحاول دراسة أدب الرافعي في ضوء معطيات فن إبداعي بدأت الدعوة إليه في حياة الرافعي ، لكن ربما منعته كون الدعوة التي حملها دعاة التجديد في وقته ، وروجوا لكُتَّابها الذين كانت حبائلهم

(٧) وحي القلم ص :٣ /١٧٤ .
(٨) مجلة "منار الإسلام"، العددان: الثاني والثالث، السنة العشرون، يوليو / أغسطس ١٩٩٤م. أبو ظبي ــ الإمارات العربية المتحدة .

موصولة بالغرب، وعقولهم مربوطة بسلاسل عند حائط دعاة التغريب ، وتسفيه كل ما يتصل باللغة العربية ، وبتراثها العريق...

فن القصة ربما بدأ مع بداية انتشار الرافعي على خارطة الإبداع ، لكن الرافعي الحارس الأمين للتراث العربي، والقَيِّم على الأصالة، والمرتكن إلى ركن متين؛ الإسلام، ذلك الدين الذي يحفز على التجدد والانتصار لكل ما هو حي وحيوي ومُبتكر وغير تقليدي، قديما كان أو حديثا، جعله يفيد من طاقات فن الإبداع القصصي، وإن كان يتحرج من أن يعلن نفسه قاصًا أو كاتبًا لفن القصة ، كما كان للمتعاركين معه وقتئذ؛ كالعقاد وطه حسين وغيرهم، فربما أبت نفسه أن يسلك طريقهم!! وآثر أن يسلك طريقا وحده، أن يكون فريدا فيما يبدعه، دون أن ينحاز إلى طريق ربما لم يكن معبَّدًا له، أو مُحبًّا لأن ينضاف إلى سالكيه!!.

فوجدت أنه قد أفاد من طاقات ووسائط أو تقنيات كتابة القصة ، وصناع الرواية، ونظريات نقادها ، حيث كان السرد بطاقاته ووسائطه الإبداعية ، طريقة في كتابة بعض المقالات ، التي ربما تميل إلى طبيعة القصص ، فيما يسرد من موضوعات، كانت تنال اهتمامه ، فكانت كثيرا من مقالاته يغلب عليها شكل البناء القصصي، وهذا ما جعله يعنون كثيرا من مقالاته بما يفيد أنها قصة!!، مثل: (قصة أب، وقصة الأيدي المتوضئة ، وعندما يتحدث في مقال بعنوان: وحي الهجرة، يردفه بمقال عن : فلسفة القصة . وقصة زواج وفلسفة المهر. إلى جانب الكثير من المقالات التي لا تخرج في بنائها الفني عن كونها قصص(٩) بالمعنى الفني الذي يفهمه الرافعي ، وربما لا يختلف عليه معه كُتَّاب القصة ونقادها وقتئذ !! .

---

(٩) ففي الجزء الأول نجد على سبيل المثال لا الحصر : قصة اليمامتان ، وحديث قطين ، وبين خروفين ، وهذه تعد من القصص على لسان الحيوان كما في كليلة ودمنة . ثم نجد قصة : الطفولتان ، وأحلام في الشارع ، وأحلام في قصر الباشا ، وقصة زوجة إمام في حلقتين ، وقصة الطائشة في حلقتين كذلك . وأرملة الحكومة ، والجمال البائس في خمس حلقات ، والله أكبر، في اللهب لا تحترق.

وفي الجزء الثاني نجد قصة : عروس تزف إلى قبرها ، وقصة أب ، والسمكة ، والزاهدان ، وقصة الأيدي المتوضئة .

وفي الجزء الثالث نرى قصة: شيطان وشيطانة، وقصة العجوزان في خمس حلقات.

وجدت أن بعض المقالات تتناول بعضا من جوانب "**شخصية النبي محمد (ﷺ)**"، بوصفه القدوة ، والمثل الأعلى ، والأنموذج الإنساني الأكمل في حياة المسلمين ، فأردت أن أتناول هذه المقالات ليس بالتحليل والتوصيف الذي يلجأ إليه بعض الدارسين الذين يهتمون في مثل هذه المقالات ، بما يمكن إدراكه في مظان كتب الشمائل والصفات والسير، والوقوف على القيم والخصائص النبوية والحضارية، والأدوات اللغوية والبيانية التي أسهمت في تشكيل هذه الرؤية التقليدية!! وعلى عظم قدر هذا العمل وأهميته ! ، لكني أطمح إلى الفن في عملية الإبداع هذه ، يأسرني وهجه ، ويستلب لبي جماله وحيويته ، ويذكي شعلة تفكيري غموضه في آن !! ، أبحث عن الوسائل أو الوسائط أو التقنيات التي تعين المبدع على تجلية رؤيته وتشكيل فنه . ومن ثم ، نفذت إلى زاوية أردت أن أصحب فيها الرافعي وهو يمارس حضوره الإبداعي ، ويوظف أدوات جديدة في تشكيل المقال الأدبي ؛ يوظف طاقات السرد القصصي وآلياته ، وأدواته ، وهو يرسم هذه اللوحة التشكيلية لشخصية النبي (ﷺ) ــ إن صح التعبير ــ وهذه التقنيات الفنية التي كانت تمارس إبداعها وهي ترسم ملامح هذه الصورة النبوية، وكأننا في مرسم تشكيلي ، يصحبنا فيه الرافعي وهو يمارس حرفته الفنية باقتدار، وحس مرهف ، وذكاء لماح، وعقل منفتح ، وقلب مدرك ، وممسك للحظة التجلي واكتناه الإيمان !! .

الرافعي هنا يمارس حضوره الإبداعي متسلحا بالطاقات أو الوسائط أو (التقنيات) الفنية ، التي لا يغفلها مبدعو القصة ، دون أن ينضاف على قصاصي تلك المرحلة ، الذين كانت ترنو عيونهم إلى الغرب أكثر من ارتكانهم إلى حاضنة تراثهم الشرقي ، بعروبته الأصيلة ، وإسلامه العريق ووشائجه الحضارية ... ولعل هذا كان دافع الرافعي أن ينخلع من ربقة (كتابة القصة) بمفهومها الأدبي الذي كان يروج له تلاميذ المدارس الأدبية الغربية ؛ العائدين من أوربا ، أو المتطلعين إلى فردوسها الجديد !! ، لعل ذلك كان دافعا آخر ينضاف إلى سابقه لأن أنصف الرافعي الذي أثرى حياتنا بالإبداع القصصي ، بالوصفة الرافعية التي اختارها لنفسه، والمنهج الأدبي الذي يعرفه ، وإن لم يُرضِ بعضا من شانئيه !!

والتي كانت تنطلق من رؤيته الحضارية والإنسانية ، الملتحمة مع عقيدته وتراثه، وتعبر عن أصالته، وعروبته، وتترجم عن قيم الشرق الأصلية والإسلام العريق...

حاولت في هذه الدراسة أن أتماس مع بعض من قصائده (النثـــر شـــعرية)، مبرزا تلك الطاقات التي كانت تميز الرافعي عن غيره من أدباء ومبدعي عصره، عبر عملية التحليل والنقد ، ولا أجـــدني إلا أن أنحنـــي احترامـــا لهـــذا الأديـــب المرموق، الذي أسهم بإبداعه المتميز في هذا المضمار؛ ليسد ثغرة كانت ــ مـــا تزال ــ شاغرة ، لو لم تلد أم الرافعي (رحمها الله)، الأديـــب الملهـــم مصـــطفي صادق الرافعي..!!

جاءت الدراسة في قسمين :

الأول : للدراسة النظرية ، بعنوان :

الرافعي : الحياة والإبداع والرؤية .

وجاء تحتها عدد من الموضوعات ، كالتالي :

١- الرافعي:النشأة والحياة.

٢- الرافعي والإبداع الأدبي.

٣- الرافعي وإبداع القصة .

٤- الرافعي وإبداع الشخصية .

الثاني : خصصته للدراسة الفنية : وكانت بعنوان :

شخصية النبي (ﷺ) في مقالات وحي القلم للرافعي :

وجاءت في ثلاث لوحات :

* **اللوحة الأولى:** الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام .
* **اللوحة الثانية:** حقيقة المسلم .
* **اللوحة الثالثة:** الإنسانية العليا .

ثم أردفت الدراسة الفنية بالخاتمة ، تناولت فيها بعضا من نتائج الدراسة . ثم اتبعتها بثبت للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات التي جاءت على تلك الصورة .

أمل أن أكون قد وفيت دَيْنِي نحو الرافعي الأديب الملهم ، العربي المســـلم ، الحارث لتراثنا الأصيل ، والمتواصل والمشتبك مع كل ما يثـــار فـــي مجتمعاتنـــا

العربية والإسلامية من قضايا ومشكلات، كانت وما تزال تمس وجود الأمة العربية وهويتها الإسلامية؛ بحس أدبي مرهف، وموهبة خصبة قادرة على إثراء حياتنا، بإبداع متميز رقراق العبير لا يباريه شاعر، أو يفاخره أديب، ينشد الحب والخير والجمال ....

كما أمل أن أكون قد سلطت الضوء على جانب جديد من جوانب الإبداع وطرائقه عند الرافعي ، والتي ما تزال أرضا بكرا ، لم تطأ تربتها قدم بعد !! ذلك فيما أعرف . وأن أكون ببحثي هذا قد أسهمت في تشكيل رؤية نقدية تلفت الأنظار نحو أدب الرافعي . آمل أن يثار حولها النقاش العلمي والأدبي ، وأن تنال حقها من الدرس والنقد في مؤسساتنا الأكاديمية ، حول هذه النظرة الجديدة في أدب الرافعي، أديب العربية ، وحارس حضارتها الأمين .

رحم الله الرافعي رحمة واسعة ، لقاء ما قدم للعربية وللإسلام ، ولحضارتهما ، وإبداعهما الأصيل .

كمال

القسم الأول

الدراسة النظرية

الرافعي : الحياة والإبداع والرؤية

* الرافعي : النشأة والحيـــاة .
* الرافعي و الإبداع الأدبي .
* الرافعي و إبداع القصـــــة .
* الرافعي و إبداع الشخصية .

كان للأديب "**مصطفي صادق الرافعي**" ما لم يكن لغيره من معاصريه ، من سمات إنسانية ، للأديب المسلم ، القيِّم علي دينه ، والغيور علـى قوميتـه ، وبلاغة لغته، وعبقرية وسحر أدبها وعراقة إبداعها، وجمال نسجها الذي أغراه؛ لينسج عبر طاقاتها الجمالية أفكاره ، ورؤاه وتصوراته المنبثقة عـن التصـور الإسلامي الذي تعتنق فكره ، ويزهو بسمو رؤيته ، لما يعالجه من قضايا ويطرح من مشكلات .. فكان الرافعي وإبداعه ، غاية في الإبـداع والبلاغـة والبيـان . صيغت في أشكال تعبق بالأمل والدعوة إلـى الحـب ، والخيـر ، والإصـلاح ، والجمال. في الوقت الذي كانت تعزف آلات المناوئين له ألحان اليـأس والبـؤس والتخلف والانحطاط !!.

بهذه الخصائص التي اجتمعت لهذه النفس الصادقة والموهبـة المؤمنـة الفريدة، تميز الرافعي في أدائه الإبداعي في عالم الأدب والفكر والبلاغة، فكـان أسلوبه يجمع الفضائل الكتابية في اللغة والخيال، وفي البيان والفصاحة... فكـان أدبه "حكمة عالية مصوغة في أجمل قالب من البيان([١٠])" ... حتى ليقال: "كان في أسلوب كتابته ومنهج تفكيره، يعلو على طاقات الفهم عند كثير من الناس، حتـى عند هؤلاء الذين رزقوا نصيبا من الفهم والإدراك([١١])"... بهذه المسئولية الفكرية والإبداعية، وضع الرافعي أساس مدرسة الأصالة في الأدب العربـي المعاصـر،

(١٠) حياة الرافعي ص: ٣٦.للأستاذ سعيد العريان ــ مطبعة الرسالة ــ أولـى ــ ١٩٣٩ م ــ القاهرة ... والقول منسوب للزعيم مصطفى كامل في تقريظه لديوان النظرات للرافعي .
(١١) مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسـلاميا ص: ١٠٩ ــ الـدكتور مصـطفى الشكعة ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٨ــ بيروت.

فدأب علي ربط الأدب بالفكر الإسلامي،وحماه من النزعة الوافدة الداعية إلى الكشف والإباحية (الأدب الداعر) .. فما يزال فكره الإبداعي/القرآني/ النبوي متألقا، وما تزال القضايا التي فجرها في إبداعه ، وزخرت بها معاركه الأدبية قائمة، فما تخبو إلا لتطل من جديد، وإن تزيت أزياء جديدة وقشيبة، تدعو أصحاب الأقلام من أبناء الأمة المخلصين، إلى المجاهدة، والمناصرة بالفكر المستنير، والعمل المخلص الجاد، المنبثق عن العقيدة الإسلامية، وتصورها لهذه القضايا، في أسلوب أدبي رائق ورائع، يجمع بين جمالية الشكل، إسلامية المضمون .. حتى يلقى القبول والرضا لدى المتلقين الذين كادت السبل (مناهج التعبير المنحرفة)، أن تتفرق بهم عن السبيل المستقيم ، الذي دعا إليه الإسلام في قول الله الكريم: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون"(١٢) .

بهذا التفكير المنهجي للأدب، في العملية الإبداعية عند الرافعي، استحق أن يكون رائدا للأدب الإسلامي في العصر الحديث، حيث إنه قد أخذ نفسه بالعزم على معالجة قضايا المسلمين والتعبير عن آلامهم، وآمالهم، فشغل نفسه بالإسلام والمسلمين؛ بالدفاع عن همومهم، وقضايا عقيدتهم، والذب عن جمال لغتهم، وجلال قرآنهم، والكشف عن جوهر حضارتهم التي تكمن في جوهر الإسلام الصافي، ورؤيته السديدة في معالجة كل هذه القضايا وتلك المشكلات .. فكان الرافعي كلمة إسلامية جامعة، تتلخص في الدعوة الصادقة إلى الإسلام، وقيمه، وفضائله، في عالم الأدب، والفكر، والإبداع مما تمخضت عنه أفكار وثقافات وفلسفات العصر الحديث .. " كان شاعرا، وكاتبا، وأديبا، وعالما ومؤرخا؛ ولكنه بكل أولئك، وبغير أولئك، كان شيئا غير الشاعر والكاتب والأديب، وغير العالم والمؤرخ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، وليردها إلى مقوماتها، وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها، والتي تعتز بها ولا تعمل لها(١٣)".

---

(١٢) سورة الأنعام آية : ١٥٣

(١٣) حياة الرافعي ص: ٥ ،٦ .

الرافعي : النشأة ..الحياة (١٤)

ولد **"مصطفي صادق الرافعي"** في شهر يناير من عام ١٨٨٠م، في "بهتيم" إحدى قرى محافظة "القليوبية" بمصر، في أسرة عريقة يشتغل أكثر أبنائها بالقضاء الشرعي حتى يقال: أوشكت وظائف القضاء والفتوى في وقت ما أن تكون مقصورة على "آل الرافعي"!!، حيث اجتمع منهم أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية مما أثار قلق "اللورد كرومر" فكتب بذلك في تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية(١٥)".

في بيت جده لأمه الشيخ (الطوخي)، وضعت الأم هذا الطفل المعجزة، وهي لا تدري أنها تقدم للإنسانية مفكرا وفيلسوفا وأديبا من الطراز الفريد. وما أن بلغ السنة الرابعة من عمره حتى بدأ يعلمه والده الشيخ (عبد الرازق) رئيس المحكمة الشرعية بطنطا ــ بعدئذ ــ أوليات القراءة والكتابة والإنشاء وحفظ القرآن الكريم، وبعد أن تقدم أخذ يعلمه اللغة الفرنسية ، وظل هكذا يجتهد ويثبت نبوغه وتفوقه في تلقي المعارف المختلفة حتى أصيب بعد ذلك بمرض "التيفوئيد" واشتد عليه، فنال من أعضائه؛ سَمْعِهِ، وصوته حتى أذهب سَمعَهُ، وهو على أعتاب العقد الثالث من عمره الخصيب.

---

(١٤) رجعنا في هذا الجزء من الدراسة إلى ما نشر من دراستنا عن "الرافعي" في مجلة "منار الإسلام" في عدديها (الثاني والثالث) من السنة العشرين شهري صفر، وربيع الأول ١٤١٥هـ / يوليو وأغسطس ١٩٩٤ م .. بعنواني : (الأديب الأصم، قضايا شغلت فكر الرافعي) للمؤلف / كمال سعد محمد خليفة .

(١٥) الرافعي ومي ص :٧ عبد السلام هاشم عبد الحافظ .بتصرف .المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ــ ١٩٦٤م . مصر .

بهذا، أصبح الرافعي في عزلة عن العالم، ووقفت به هذه العقبات عن التعليم ولكنه آثر العزلة، واتجه اتجاها آخر أكثر ملاءمة لنفسه التواقة إلى العلم والمعرفة، وأرضى لميوله الشخصية المنفتحة للإطلاع والتحصيل العلمي، فذهب يثقف نفسه بنفسه، حتى غدا الكتاب سميره وصديقه، وانقطع للاطلاع على الكتب في مكتبة والده؛ ليحقق لنفسه ثقافة لازمة لأديب كان يرجو أن يكون، وكان دائما يحدث نفسه بقوله: "إذا كان الناس يُعْجِزُهم أن يُسْمِعُونِي فليَسْمَعُوا مِنِّي...!!(١٦)".

انصرف الرافعي إلى التراث الأدبي العربي والإسلامي يقرأ ويفكر، ويحفظ ويستظهر لمدة ثماني ساعات يوميا ، فاستطاع أن يصل إلى قدر من الثقافة العربية والإسلامية ما أعانه على الإبداع ، وأفسح له مكانا بارزا بين كبار الكتاب حتى اليوم ، بل تضعه على رؤوس الجميع ، تشهد بهذا كُتبه التي دبجها قلمه ، وأدبه الذي أفرزته موهبته في كل الميادين ، وتجاه كل القضايا التي كانت تشغل مجتمعه الفكري والثقافي والأدبي والحضاري ، التي كانت تشعل معاركه مع رواد جيله من المفكرين والأدباء !!، مما خلف تراثا نقديا وإبداعيا لكبارهم أثرى حركة النقد ، وأغنى حقل الإبداع ، بكثير من نتاج هذا العراك ، والالتحام بينه وبين العقاد وطه حسين وسلامة موسى ، وغيرهم من الأدباء والمفكرين . وبهذا اكتسب الأديب وإبداعه الأدبي الإنساني الحياة ، حتى وإن مات كاتبه !!.

المؤثرات التي صنعت من الرافعي أديبا إسلاميا:

تهيأت مجموعة من البواعث صنعت من "الرافعي" أدبيا مرموقا، فكان كالماسة يشع ضوءه في جميع الاتجاهات، وساعدته على الإدلاء بفنه في جميع الموضوعات والقضايا السياسية والاجتماعية والفكرية. فكان إبداعه يمتلئ بالتجارب الإنسانية الخصبة، والعواطف المتأججة، التي تجيش بها الأحاسيس المرهفة، فكان أدبه صورة له، ولقضايا مجتمعه وهموم وآمال وآلام أمته، وما يمور فيهما من آلام لم تبرحه، (فالفنان هو نفسه مضمون فنه، وفنه فيض تلقائي

(١٦) مصطفى صادق الرافعي ص:٨ كمال نشأت .بتصرف . دار الكاتب العربي للطبع والنشر ــ ١٩٦٨م ــ مصر .

من ذاته) ... فلقد ظل "الرافعي" ابنا وفيا وبارا بأمته، يرتدي زيَّ الطبيب، ويمسك بمشرطه، ويحفر الأرضية الاجتماعية؛ ليستأصل بقلمه ويده مواطن العلة ومكمن الزيف، ويقتلع جذور الانحراف. فيفجر كل ذلك عبر الكلمة المشحونة بالتوتر والألم ... ينهل من ينبوع الإيمان والعقيدة الراسخة، ملتزما الرؤية الإسلامية في معالجاته فكان إبداعه الأدبي ترجمة حقيقية، لما يحس به من مشاعر ومعاناة نفسية، حملته على هذا الإبداع ، وألهبت قريحته بما يزيد من بريقها وجمالها لدى المتلقين ..

يكاد يتفق مؤرخو الأدب على أن الرافعي علامة بارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث، وأنه أعطى الحياة الأدبية والفكرية من الجهد والوقت والفكر ما أثراها، وجدد شبابها. فقد كان يشبه في علمه الغزير" مكتبة دقيقة الترتيب، منظمة التبويب، ما شئت من بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه، فلو قورن بأكبر أديب ، أو كاتب عالمي لكان هو في القمة وغيره في السفح".!!

أ) ـ نشأة الرافعي في أسرة مثقفة دينيا:

كان لأسرة الرافعي انتماؤها الأصيل للثقافة الإسلامية والعلم والفكر والأدب، حيث عمل الكثيرون منها بالقضاء الشرعي ومنهم من التحق بالأزهر وتخرج منه عالما وأديبا([١٧])، وقرض الشعر وله فيه دواوين، فلا شك في أن هذا الميراث من الثقافة الإسلامية والثراء الفكري والأدبي لمثقفي أسرة الرافعي...كل هذا طبع الرافعي في سلوكه الفكري والاجتماعي بالطابع الإسلامي، مما كان له عظيم الأثر في إبداعه، يجعله يثور ثورة عارمة عندما توجه السهام للدين الإسلامي أو الفكر الإسلامي. فقد كان الرافعي دائما بطل حلبة الصراع في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ولا يرضى بغير الانتصار على خصومه، سيما إذا كان مضمار الصراع؛ الفكر أو اللغة أو الدين .

ب) البيئة :

تربى الرافعي في كنف بيئة دينية، فقد كان يسكن في صباه (طنطا) حيث يوجد الجامع الأحمدي، وكان الرافعي على صلة روحية بهذا الجامع / المعهد

(١٧) راجع : مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا ص : ١٥: ٢٠ د . مصطفى الشكعة ــ سابق .

العلمي في مسقط رأسه، فإذا صلى بالمسجد جلس تحت قبته ساعات خاشعا مطرقا يتمتم بالدعوات ويتلو القرآن الكريم حتى أنه كان يحكى أنه رأى السيد البدوي في المنام وبشره بالشفاء من داء الصمم الذي أصاب أذنيه([١٨])!!... لكنه وبرغم هذا كان متشددا لدرجة قصوى فيما يمس العقيدة والدين ، مهما كان صغيرا أو حتى هينا !! . فيحكى أن صديقا كتب له رسالة وذكر فيها اسم الرسول (ﷺ) دون أن يتبعه بالصلاة والسلام عليه ، فكتب الرافعي إليه يعاتبه عتابا شديدا، معتبرا ما فعله سوء أدب لا يقبله من أحد ، ولا يُقِرُّ أحدا عليه !!.

فإذا جمعنا عامل الوراثة، إلى البيئة الاجتماعية ، والمناخ الديني ، والثقافة الدينية التي ثقفها، استطعنا أن نتعرف على سمة فكره ، ومضمون إبداعه ، فيما سنتماس معه من نتاجه الأدبي في دراستنا .

ج) **الموهبة والاستعداد الفطري** :

الموهبة والاستعداد الفطري اللذان يميزان الأديب عن غيره من الناس ، هبة من الله يميز بها شخصًا ما دون الآخرين!! ، وهي (أشبه بالغرائز النفسية التي ركبت في الإنسان المزاول لعملية الإبداع)، يستطيع تعليتها أو السمو بها، ولا يستطيع إزالتها أو القضاء عليها ، ومعنى أنه استعداد فطري، أنه يولد مع صاحبه ، ويحيا معه ما عاش ، وأنه لا يمكن أن يُنَال بالتثقيف أو التعليم أو التحصيل، وإنما هو ملكه راسخة في أعماق صاحبها ، تصدر عنها أعماله ، و تشكل إلى جانب ثقافته هوية فكره وسلوكه ورؤية إبداعه .

تلك الملكة التي وهبه الله إياها ، تثار بتجربة ما ، أو حدث ، أو قضية تشكل معاناة للمبدع ، فيتدفق هذا التأثر فنا أو إبداعا ، يستمتع به المتلقين ، خلال استعراضهم لهذه التجارب أو معايشة تلك المعاناة !! ، وكلما كانت المعاناة أعمق كان الإبداع أكثر صدقا وأشد وقعا في النفس ، وأنقى شدوا وتغريدا في

---

(١٨) ربما كان لذلك أثره في انجذابه نحو هذا الجو الروحاني ، في مثل هذه المساجد العامرة بذكر الله، ومدارسة العلم الديني إلى جانب الصلوات . إلا أنني لم أجد أي أثر للتوجه الصوفي في أدبه .. هذه الحالة إلى جانب محفزات أخرى ، ربما هي التي انعطفت به نحو الإسلام بعمقه وامتلائه الإنساني والروحي اللذين يسعيان إلى تشكيل الوعي الحضاري للإنسان المسلم، والذي يفرز في الوقت نفسه تميز الإبداع الذي ينتجه الرافعي الأديب .

آفاق الحياة بشتى ألوانها !! فترقى في هذه التجربة إلي درجة الفن ...الفن الصادق الذي يسمو بالإنسان ويرتقي به إلى مقامات الإنسانية العليا .

ولعل هذه تعد أهم مؤثر في حياته الأدبية، إذ لولا الموهبة والاستعداد الفطري لظل الرافعي طول حياته قارئا وكفى. فهذا الاستعداد وهذه الفطرة/الموهبة ، صنعا من الرافعي أدبيا لا يبارى، فقد كانت نفسه تنفعل بما يقع حوله من أحداث ، ويستثار إذا ما وقعت عينه على ما لا يقنعه ، ويمثل تجربة ذاتية للأديب حيث كانت نفسه تستجيب لمرائي الجمال في الطبيعة ، حتى أنه في صباه عرف فتاة حسناء اسمها " عصفورة (١٩) " ففاضت مشاعره بما اعتمل في نفسه، فراح يروض الشعر حتى أسلس له القياد . فقال(٢٠):

عصافير يحسبن القلوب من الحب ∴ فمن لي بها عصفورة لقطت قلبي؟
وطارت فلما خافت العين فوتها ∴ أذالت لها حبًّا من اللؤلؤ الرطب
فيا ليتني طير أجاور عشها ∴ فيوحشها بعدي ويؤنسها قربي
ويا ليتها قد عششت في جوانبي ∴ تغرد في جنب وتمرح في جنب

إلى أن يختمها بقوله :

وقالت تجلد قلت يا من سائلي ∴ عن الحزن يعقوبا ويوسف في الجب
وما أرى الأحباب إلا ودائعا ∴ ترد فإما بالرضاء أو الغصب

للرافعي في هذا الجانب العاطفي أسفارا رائعة من الإبداع شعرا ونثرا. فإلى جانب قصائده التي تغنى فيها بحب محبوباته، له باقات من النثر العاطفي الرقيق ربما ضاقت قصائد الشعرعن استيعابها!!، سجل عبرها تجاربه العاطفية مع حبيباته اللاتي أثرن شجونه وملكن وجدانه، وحركن عاطفته نحوهن!! فكان أجمل

---

(١٩) حياة الرافعي ص :٢٢ .

(٢٠) ديوان الرافعي ج١/ ١ مطلع قصيدة من ثلاثين بيتا في الغزل والنسيب وذكرت كذلك في الجزء الثالث ص: ٦٧ لكن ضمن الثماني أبيات الأولى فقط ولعل جامع الجزء الثالث وناشرة وقع خلط عنده وظن أن القصيدة لم يسبق نشرها في الجزء الأول كاملة فأعاد نشر الثمانية منها ربما ظن منه أن ما وصل إليه الثمانية فقط شرح الأستاذ محمد كامل الرافعي ــ مطبعة الإيمان ــ مصورة عن الأصل الذي نشرته الجامعة في الإسكندرية عام١٣٢٢ هـ ــ المنصورة .

نثر عربي ربما لم يسبق إليه في الأدب الحديث، فكان: أوراق الورد، والسحاب الأحمر، وحديث القمر؛ دواوين العشق في الأدب الحديث في دوحة الرافعي الغناء .. تعلم الرافعي الحب لا كما يتعلمه الشبان في مجالسهم .. لكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع في همسات روحه، وخلجات وجدانه، وخفقات قلبه، وانفعال أعصابه؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة ... شَعَرَ كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه ، وتهتف باسمه في خلوة نفسه ... فهام بالحسن ينشده شعره، وينشد فيه مثاله الذي يدور عليه ، وطار في وجهه كالفراشة الحائمة ... لم يكن الرافعي يحب إنسانة بعينها، يناديها باسمها ويعرفها بصفتها، بل كانت محبوبته شيئا في نفسه ، وصورة من صنع أحلامه ، يرى في كل وجه فاتن لمحة من جمالها ، وفي كل طلعة مشرقة بريقا من فتنتها ، وفي كل نظرة أو ابتسامة معنى من معاني الحبيبة النائمة في قلبه وفي أمانيه(٢١)".

د) اتصاله بالشيخ محمد عبده :

نهل الرافعي من معين الإمام علما وخلقا ، فلزمه كثيرا، حتى آثره الإمام بحبه لما لمحه فيه من النجابة والذكاء الفطري ، والشاعرية الفياضة فكان يشجعه ويطريه حتى أنه قال :" أسال الله أن يقيمك في الأواخر مقام حسان بن ثابت في الأوائل " ..

هـ) كثرة مطالعاته وقراءاته:

كثرة مطالعاته وقراءاته الواعية في كتب التراث الأدبي والإسلامي، حتى قيل عنه استظهر كتاب "نهج البلاغة" للشريف الرضي، وكان يقرأ ثماني ساعات في اليوم... فغرامه بالقراءة وإلزام نفسه بها صنع منه أديبا قديرا.. فقد كان يقول: "ما أرى أحدا يفلح في الكتابة والتأليف إلا إذا حكم على نفسه بالأشغال الشاقة الأدبية، كما تحكم المحاكم بالأشغال البدنية، فاحكم على نفسك بالأشغال الشاقة سنتين أو ثلاثا في سجن الجاحظ أو ابن المقفع أو غيرهما، وهبها كانت في أبي زعبل أو طره(٢٢)".. "اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والاطلاع، وكانت علته

---

(٢١) حياة الرافعي ص : ٢٢، ٢٣ .

(٢٢) مجلة الأمة العددان ٣٤، ٦٣ . وأبوزعبل وطرة اسمان لمؤسستين (سجنين) من مؤسسات العقاب في مصر .

خيرا عليه وبركة. وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوي الجسد الذي هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية في غد!.. كانت مكتبته .. هي دنياه التي يعيش فيها : ناسها ناسه، وجوُّها جوه، وأهلها صحابته وخلانه، وعلماؤها رواته، وأدباؤها سمَّاره؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة والرواة فمًا لفم، فنشأ نشأة السلف، يرى رأيهم، ويفكر معهم، ويتحدث بلغتهم، وتستخفه أفراحهم، وتتراءى له أحلامهم ومناهم([٢٣])".

هذه كانت أهم المؤثرات التي جعلت من الرافعي أديبا إسلاميا لا يبارى في عالم الأدب، فضلا عن غيرته الدينية، واتصاله بشعراء عصره وأدبائه، ومعاركه الأدبية في عالم الأدب والفكر لا تخفى علينا جميعا، هذا إلى جانب عاطفته الجياشة، وافتتانه بالجمال؛ فأحب الكثيرات منهن زوجته وله في باب الحب والعواطف مؤلفات من أجمل ما كتب في فلسفة الحب كالسحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر ورسائل الأحزان وغيرها، وزواجه بزوج من أسرة كريمة كانت تحترمه وتحدب على راحته، وتبادله الحب، وتقدر له ما يصنعه في حياته، بوصفه رجلا عظيما. يقول عنها الرافعي: "إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني، وأن لها عليَّ حقا ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة([٢٤])"، فكان يطلعها على رسائله في الحب، خاصة التي كان يرسل بها إلى الأديبة "مي زيادة"، تلك المرأة التي فتن بها، مثل غيره من الأدباء والنقاد في عصره!!.

---

٢٣) حياة الرافعي ص : ١٨، ١٩ .

٢٤) راجع مقالنا : الرافعي الأديب الأصم عدد (٢،٣) مجلة منار الإسلام . سابق .

الرافعي و الإبداع الأدبي

إذا كان الرافعي ينعم بموهبة واستعداد فطري يمنحانه القدرة على الإبداع في عالم الأدب والنقد ،إلى جانب ثقافة إسلامية وتوجه إنساني أصيل، وجها رؤيته الفكرية ، وصوبا هويته الحضارية ، و عَيَّنَا خصوصته الفنية والإبداعية ، إلى حيث حط رحاله في ميادين الأدب والفكر والفلسفة والإبداع ، والقضايا النقدية والفكرية التي شغلت من وجوده وحياته المساحة الأكبر والأكثر ثراءً على خارطة الإبداع . وليس أدل على ذلك الثراء من تنوع حقول الإبداع ، وتعدد المؤلفات الكثيرة في عالم الفكر والنقد والإبداع الأدبي ، التي أنتجها الرافعي في حياته التي كانت تعج بالبواعث التي بعثت فيه روح الإبداع في شتى القضايا والموضوعات التي عنت له في مسرح الحياة آنئذ... ومن هذه المؤلفات :

أولا: ديوان النظرات :

يحوي هذا المؤلف شعر الرافعي ، وصدر في ثلاثة أجزاء ، صدر الجزء الأول منها في سنة ١٩٠٣ م بعيد صدور ديوان الشاعر حافظ إبراهيم ، قدمه بمقدمة ضافية تعد درسا وافيا في معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، تدل هذه المقدمة بمعناها ومبناها على أن الشاعر الرافعي يعرف أين يضع قدمه على خارطة إبداع الشعر بين شعراء جيله ؟!! ..

قام بتقريظ هذا الديوان ــ لأهميته ــ عدد من النقاد في عهد الرافعي منهم ؛ الأستاذ الشاعر(الشيخ إبراهيم اليازجي([٢٥]) الذي قال: ".. وقد صدره ــ الديوان

---

(٢٥) إبراهيم بن ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط، .. ولد في بيروت في الثاني من شهر آذار سنة ١٨٤٧م في بيت هو موئل اللغة والأدب . تخرج إبراهيم اليازجي في مبادئ اللغة على يد أبيه الشاعر المعروف ناصيف اليازجي، ثم درس لنفسه كثيرا، فنال بجده واجتهاده وحبه للأدب واللغة وذكائه المفرط مراده المنشود، فأصبح عالما من أعلام اللغة العربية، وشاعرا مجيدا، فجاء شعره غاية في الإبداع الشعري، وقمة في الخيال، الذي تاثر فيه بأبيه.. من أشهر قصائده والتي تجاوب صداها في البلاد العربية عامة.. والتي مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ∴ فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

انتقل إلى القاهرة، وهناك أصدر العديد من المجلات والصحف التي كانت تعد منبرا للثقافة والسياسة في حينها، كمجلة البيان والضياء؛ السيارتين وقتئذ، وظل على وهجه الثقافي والسياسي، وصوتا مجلجلا للقومية العربية، حتى وافته المنية في القاهرة في ١٩٠٦م. وخلف كثيرا من الإسهامات العلمية في اللغة العربية، ونقح التوراة بعد ترجمتها إلى العربية، وترك ديوانا من الشعر ضم ما أنتجه من شعره في حياته .

ــ الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهبا عزيزا في البلاغة، وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته، في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه .. إن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم(٢٦)"، وكذلك نال استحسان الشيخ الإمام (محمد عبده)، فدعا له "بأن يجعل الله من لسانه سيفا يمحق الباطل ، وأن يقيمه في الآخرين مقام حسان في الأوائل(٢٧)"، وكذا الأديب والشاعر الكبير محمود سامي البارودي الذي قرظ الديوان شعرا، فقال(٢٨):

لمصطفي صادق في الشعر منزلة ∴ أمسى يعاديه فيها من يصافيه
صاغ القريض بإتقان فإن تليت ∴ صدوره علمت منها قوافيه
مهذب الطبع ، مأمون الضمير إذا ∴ بلوته كان باديه كخافيه
حاز الكمال فلم يجنح لمنقبة ∴ فلست تنعته إلا بما فيه

أما شعره، فكان ينضح بالفلسفة الإسلامية والقيم الإنسانية الجميلة . من هذا حديثه عن العلم والمال والدين، يقول(٢٩):

وليس الناس أجساما تراآى ∴ ولكن كل نصل في قراب
تفاوتت النفوس فرب نفس ∴ على فلك ونفس في ثياب
فلا تعجب إذا الإنسان أمسى ∴ لدى الإنسان كالشيء العجاب
يعد الناس ضعف الناس ذنبا ∴ لذا خلق القوي من العقاب
فذو المال استبد بكل نفس ∴ وذو العلم استخف وذو الكتاب
لدن ركبوا سفين الدهر ظنوا ∴ بني الدنيا متاعا للركاب

---

(٢٦) حياة الرافعي ص: ٣٤، ٣٥ .
(٢٧) حياة الرافعي ص: ٣٦ .
(٢٨) ديوان الرافعي جـ ٢ / ١٢٠ مصطفى صادق الرافعي ، بشرح محمد كامل الرافعي ــ مطبعة الجامعة ــ أولى ــ ١٣٢٢ هـ ــ الإسكندرية .
(٢٩) ديوان الرافعي ص ٢/ ٢٥

ولـــيس المـــال غـــير العـــين أمـــا ∴ غـــدت ســـود الحـــوادث كالنـــقاب
فـــلا يفخـــر بصـــير عنـــد أعمـــى ∴ فمـــا غـــير المصـــاب ســـوى المصـــاب
يظـــن الأغنيـــاء الفقـــر ضـــعفا ∴ وكـــم مـــن حيـــة تحـــت الـــتراب
ولا يخشـــون ممـــن جـــاع بأســـا ∴ ولـــيس أضـــر مـــن جـــوع الـــذئاب
ألم تكـــن الســـفينة مـــن حديـــد ∴ فمـــا للمـــاء يخرقهـــا بنـــاب
إذا شمخـــت علـــى الأمـــواج تعلـــو ∴ فمـــا بعـــد العلـــو ســـوى انقـــلاب
أمـــا للعلـــم ســـلطان علـــى مـــن ∴ يـــرى أن الفضـــائل فـــي الخـــلاب
ومـــا ذو العلـــم بـــين النـــاس إلا ∴ كـــم كـــبح البهيمـــة لاحـــتلاب
يظـــل بهـــا يمارســـها شـــقيا ∴ وحالبهـــا يمتـــع بالوطـــاب
أرى العلمـــاء[٥]ذ يشـــقون فينـــا ∴ نعيمـــا كامـــنا تحـــت العـــذاب
كقطعـــة ســـكر في كـــأس بُـــنٍ ∴ تـــذوب ليغتـــدي حلـــو الشـــراب
ومـــن أخـــذ العلـــوم بغـــير حـــق ∴ فقـــد وجـــد الجمـــال بغـــير ســـابي
ولـــولا العلـــم لم تســـكن نفـــوس ∴ علـــى غـــي الحيـــاة إلى الصـــواب
ولـــولا الـــدين كانـــت كـــل نفـــس ∴ كمثـــل الـــوحش تســـكن للوثـــاب
رأيـــت الـــدين والأرواح فينـــا ∴ كمـــا صـــحب الغريـــب أخـــا اغـــتراب
فـــلا روح بـــلا ديـــن ومـــن ذا ∴ رأى راحـــا تصـــب بـــلا حبـــاب ؟

وتوالى صدور الجزأين التاليين؛ الثاني صدر في: ١٩٠٤م والثالث في : ١٩٠٨م، "مضى فيهما على سنته، معنيا بالشعر، وفي كافة الأغراض التي كان يتغنى بها شعراء العربية في عصور طزاجتها وازدهارها ، مع اختلاف محتواها لتلبي مطالب العصر وقضاياه .. لا يرى له هدفا إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية ، وكان له ما أراد فتألق نجمه وبرز اسمه بين العشرات من شعراء عصره ، براقا تلمع أضواؤه ... لقي من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء الأمة(٣٠)".

(٣٠) حياة الرافعي ص : ٣٥

وعن هذا الشعر المنشور في هذا الديوان يقول الأستاذ العريان([٣١]) : ليس كل شعر الرافعي في دواوينه، وليس كل ما في دواوينه يدل على فنه وشاعريته ، فالجيد الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر، وقد كان في نية الرافعي لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه ، ثم يخرج منها، ومما لم ينشر، ديوانا واحدا مهذبا مصقولا ، ليقدمه هدية منتقاه إلى الأدباء والمتأدبين، ولكن الموت غاله فبطل أمله ، وبقي عمله تراثا باقيا ، لمن يشاء أن يسدي يدا إلى العربية ، يُتِم بها صنيع الرافعي " .

ثانيا: كتاب "تاريخ آداب العرب":

"هذا الكتاب، ومن قبله بعض المقالات التي عني بنشرها الرافعي في (الجريدة)، كانا هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية، وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا العلم([٣٢])، ومن ثم، "تميز بمنهج يختلف عن غيره من الكتب التي أُلِّفت في هذا المجال. وعن هذا المنهج يقول الرافعي نفسه: "رأينا الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق . وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه، متقلبا على كل عصوره سواء اتسقت أو افترقت، فلا تسقط مادة عن موضعها، ولا تقتصر على غير حقيقتها، ولا تلجأ إلى غير مكانها، ثم لا يكون بعد ذلك التاريخ إلا التاريخ نفسه، لا ما يزين به العبارة المونقة، ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف([٣٣])".

وهذا المنهج لاقي قبولا لدى كثير من النقاد والرواد عند صدوره فيقول الأستاذ العريان([٣٤]) : إن كتاب الرافعي كان السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ... "

---

(٣١) حياة الرافعي ص: ٣٦ .
(٣٢) السابق ص : ٥٢
(٣٣) تاريخ آداب العرب : ١/ ١٩ مصطفى صادق الرافعي . مكتبة الإيمان ــ أولى ــ ١٩٩٧ المنصورة .
(٣٤) حياة الرافعي ص: ٥٢ .

كما حاز إعجاب الأستاذ أحمد لطفي السيد الذي تناول الجزء الأول عند صدوره في عام ١٩١١م بهذا الكلام :

" قرأنا هذا الجزء، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا. وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء، إلا بعد درس طويل، وتعب ممل. وأما أسلوب الرافعي فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا، نحن العرب المتأخرين، فكأني وأنا أقرؤه، أقرأ من قلم المبرد في استعماله المساواة، وإلباس المعاني ألفاظا سابغة مفصلة عليها..". وقرظه أمير البيان في مقالة نشر على صدر المؤيد جاء منها: لو كان هذا الكتاب خطا محجوبا في بيت، حرام إخراجه للناس منه، لاستحق أن يحج إليه؛ ولو عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار، لكان جديرا بأن يعكف عليه(٣٥) ".. وقال عنه صاحب المقتطف: إنه كتاب السَّنَة ...(٣٦)".

كما نشر الجزء الثاني في حياة الرافعي، وكان موضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ونشر في طبعته الثانية باسم (إعجاز القرآن) الذي يعرفه به القراء ... أما الجزء الثالث فقد قام بنشره الأستاذ سعيد العريان بعد وفاة الرافعي بثلاثة أعوام، وكتب له المقدمة ...

ثالثا:"**حديث القمر**":

كان كتاب حديث القمر عبارة عن مجموعة من الأسمار والخواطر المرسلة المختلفة عن أشياء متعددة ومتنوعة أنشأه بعد "رحلة إلى لبنان في سنة ١٩١٢م، عرف فيها شاعرة من شواعر لبنان، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل في الحب؛ فلما عاد وجد في نفسه حاجة لأن يقول فقال ، فكان حديث القمر[٣٧]" ! .. وكان هدف الرافعي من تأليفه هو : أن يجعل طالب الإنشاء بإدمان قراءاته وتأمله منشئاً . إذ يربي ملكة التخيل الصحيح التي هي أصل البلاغة ، ولا بلاغة بدونها....هذه المقالة صرفت فيها وجه الحديث إلى القمر وبعثت إلى

(٣٥) السابق ص : ٥٤ .
(٣٦) السابق ص : ٥٤ .
(٣٧) السابق ص : ٥٨ .

الكون في أشعة الفجر كلماتها. ولقد كان القمر بضيائه كأنه ينبوع يتفجر في نفسي، فكنت أشعر بمعاني هذا الحديث كما يشعر الظمآن اللَّهِفُ قد بلغ الرِّيَّ وتندَّى الماء كبده فأحس بروحه تتراجع كأنما تخدرها قطرات الماء ... ونشرت على خيوط القمر ليلا من ليالي الجمال دونه شباب الشاعر الغزل، مع ألحاظ فاتنته الحسناء كلما استطار في آفاقه ابتسامُها ... كتبتها وأنا أرجو أن تكون الطبيعة قد أوحت إليَّ بقطعة من مناجاة الأنبياء التي كانت تستهل سكون الليل فيعيها وكأنه ذاكرة الدهر، وأن تكون قد بثت في ألفاظي صدى من تلك النغمات الأولى التي كان يتغنى بها أطفال الإنسانية، فتخرج من أفواههم ممزوجة بحلاوة الإيمان الفطري، وتذهب في السماء متهادية كأنها طائرة بروح من اطمئنان قلوبهم، وتسيل في ضوء الصباح وظل الشمس ونور القمر كأنها في جمال الطبيعة أفكار طيور مغردة تدور على ألسنتها .. كتبتها أتناول ألفاظها من تحت لساني وأكشف من قلبي معانيها، وأنفض عليها ألوان الطبيعة التي تصور أحلام النفس وخيالاتها، وأنا أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع قواعده؛ لأن هذه القواعد في جملتها إلهام ينتهي إلى الإحساس ينتهي إلي الذوق، وذوق يفيض الإحساس والإلهام على الكتابة جميعا فيترك فيها حياة كحياة الجمال لا تداخِلُ الروح حتى تستبد بها، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليه، فتكون له كأنها فكره في ذاته(٣٨). "

ومن نماذج مادة هذا الكتاب والتي يشي فيه بفلسفة عميقة عن الحب والجمال، يقول: "الشاعر الصحيح رجل الكمال السماوي ؛ لأن الشعر إذا لم يكن مع الشرائع، كان عليها، وفي ذلك فساد كبير، والشعراء أنفسهم كالشرائع ، تكون لمن يشاء أن يكون له ، وهم يحكمون النفوس بالحب .

وإنك لترى الشاعر يستل جمال هذه الطبيعة كلها من نفسه الكبيرة ، ليلقي على الناس محبة منها، كأن الطبيعة لا تجد طريقا إلى النفوس الضعيفة إلا بعد أن

(٣٨) حديث القمر ص: ٥ ،٦ ، ٧ مقاطع مختارة ــ مصطفى صادق الرافعي ــ دار الكتاب العربي ــ ثامنة ــ ١٩٨٢ م ــ بيروت .

تصغي وتصفق في نفوس الشعراء فتخرج منها كما تنبعث من المعاني الغزلية الكبيرة من عيني الحسناء الفتنة ولكل معنى طابعه الخاص في النفس مع أنها جميعا من مصدر واحد([٣٩]) ".

أرأيت هذا العشق القائم في أدب الرافعي بين كل شيء في الكون بين الشعر والدين وبين الحب والجمال وبين النفس والكون... كل شيء في تواد وتلاطم..!

رابعا: كتاب المساكين :

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عمت الفوضى، وفشى الفقر بين الناس في الشرق العربي ومنها مصر، مما أثار شجون الرافعي وراح ينعى على الناس ضيق الرزق، وانقطاع سبل التوصل إليه ، فهاجت نفسه لمرائي مختلفة لهذا المرض الاجتماعي، فانبرى قلمه يشارك أبناء جيله هذه المأساة التي ألمت بالمجتمع كله. فقال:" أردت به ــ بهذا الكتاب ــ بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ... حاولت أن أكسو الفقر في صفحاته مرقعة جديدة ، فقد والله بليت أثواب هذا الفقر، وأنها لتنسدل على أركانه مزقا متهدلة ، يمشي بعضها في بعض ... ووضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر، و ما هو من باب الفقر،لا لمحوه ، ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ، ولكن للعزاء عنه ، وأردت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس...([٤٠])".

من نماذجه في هذا الكتاب يقول: "أيها الناس إن الفصل بين الغني والفقير من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده ، ورب غني يزيد أهله بالحرص والدناءة فقرا، فانظروا فيهما بأفكار إلهية لا تتطلب إلا الفضيلة التي يمكن أن تكون بلا ثمن ، ولا يمكن أن يكون شيء ثمنا لها ...".

خامسا: فلسفة الحب في ثلاثة كتب ، هي :

١) رسائل الأحزان .
٢) أوراق الورد .
٣) السحاب الأحمر .

---

(٣٩) السابق ص ٤٦ ، ٤٧

(٤٠) المساكين ص:٣٧ بتصرف ــ مصطفى صادق الرافعي ــ مؤسسة هنداوي ــ ٢٠١٣ ــ مصر .

والرافعي في هذه الكتب الثلاثة يحتفل بعاطفة من أسمي العواطف الإنسانية ألا وهي، عاطفة الحب ، ويفلسف من خلال هذه المصنفات العلاقة بين الرجل والمرأة ... أما وأبا، زوجا وزوجه ، التلميذ والأستاذ ، كل هذه العواطف النبيلة ، عالجها الرافعي في أسلوبه المشرق الرصين الذي يضج بالمودة والألفة ، في جو من الروحانية والسمو، في بلاغة مرفهة ، وبيان مشرق ، وأداء عذب ، يقترب إلي معالم الشعر وإن شئت قلت كلام مشعور، أو نثر عجن بماء الشعر في ثواب مبتكر، وتحليل دقيق لكل ما يعرض له ، ويمس هذه العاطفة .

والرافعي يجمل أسباب اختياره لهذا الفن الراقي في النثر الأدبي لبعض ما فيه من براعة ، أثبت للذين يرون أن اللغة العربية يعجزها التصوير العاطفي ، وأنها لغة لا تستخدم التحليل ... كما يرمي من وراء تأليفه لهذه الكتب تطهير فكرة الحب ، وتهذيب معانيه في نفوس البشر ، والسمو بها إلى عالم الروحانية والشفافية .

كما يري أن هذه الرسائل قد سدَّت مكانا خاليا في الأدب العربي ، ومنحت العربية كتبا في فن الرسائل تدور حول الحب وتهذيب معانيه ، وفلسفة الجمال وأوصافه يقابل ما في اللغات الأخرى ... وإن كان السحاب الأحمر يختلف عن الكتابين الآخرين ... فهو تعبير عن سخط الأدب للمرأة محاولا إلصاق كل ما يشين هذا الحب لها ، وكأنه فشل في حب امرأة ، فراح يكيل لها اللوم والعتاب بقسوة ... كما كان يحب للحب في أسمى معانيه ، وأعلى درجاته من الوجد ..

سادسا : كتب في النقد والبلاغة ، من أهمها :

١ . تحت راية القرآن ..

٢ . على السفود ..

٣ . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات الرافعي ذات الصدى القوي في عالم النقد، فضم سيما الأوليان منها معاركه الأدبية في عالم الأدب والفكر والفن . فكان الأول منها – تحت راية القرآن – نقدا وردا على آراء طه حسين، والثاني – على السفود – سجل على صفحاته معاركه مع العقاد.. و كانت معارك الرافعي مع هؤلاء تنطلق من كونه ممثلا للتراث (القديم) و كونهم دعاة تجديد وابتكار، وما

كان تجديدهم وابتكارهم هذا – في رأيه – إلا دعوة للفوضى والمـــروق . ولا أدل على ذلك من قول الأستاذ: "يوسف حنا" عن الرافعي فيما نقله عنه الدكتور محمد أبوالمكارم([٤١]): الرافعي هو المختار لحراسة لغة القرآن، وقد رأينا الرجل يطارد الضلال، ويتعقب فلوله المنهزمة، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يعرف هوادة، أو مهادنة في منازلة الباطل ومحق المبطلين!! لقد أصلاهم نارا!! مـــازال لهيبـــا مستعرا، يلفح الزنادقة والملحدين وأدعياء التجديد المشـــبوه الـــذين يواصـــلون الكفاح الشيطاني الخبيث المتمثل في الدعوة إلى العامية حتى تنزوي الفصـــحى، فتنقطع الصلة بين شباب المسلمين والعرب، بين حاضرهم وماضيهم التليد الكامن في هذا التراث المدون بهذه اللغة الفصيحة، مما يترتب عليـــه الانفصـــام بـــين الإنسان العربي ودينه وقرآنه العربي .. فكان الرافعي كما يقـــول عنـــه الأســـتاذ العريان([٤٢]): " كأنما اجتمع له وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها، ومقومات قوميتها، على حين كانـــت تعيش هي في ضلال و أوهام التجديد " .. كـــان لا يصـــطنع الأدب فـــي نضـــال خصومة ، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس للبناء لا منفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا وكان يؤمن بأنك لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت مثلها في اللغة .. فكان بذلك كله ناقدا عنيفا ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع !! ".

والتجديد ليس مرفوضا برمته ، فالإسلام لا يأبى الابتكار و الإبداع ، لكـــن المرفوض منه ما يحاول النيل من حقائق ووقائع صادقة في حياتنا .. فالتجديـــد كان عند خصوم الرافعي – إن صح التعبير – كلمة حق أريد بها باطل !.

ومن ثم انبرى الرافعي لهم يدافع عن اللغة وعن التـــراث بهـــذين المـــؤلفين، فكانت حججا دامغة " لا تدع مسألة ولا تترك شبهة ولا تزال تأخذ بيـــد القـــارئ فتضعها على غلطات أصحابنا المجددين! بل المبددين، واحدة بعد واحدة، وشـــيئا

---

(٤١) الرافعي والانتصار للعربية ص:٦ ــ دار البشير للثقافة ــ أولى ــ ١٩٩٠م ــ طنطا .
(٤٢) حياة الرافعي ص :٤ ، ١٢١ .

بعد لا شيء، فهو منها في برهان لائح من حيث بدأ إلى حيث ينتهي، كالنجم لا يزال بعين منه أين مشى ؟ و كيف تلفت ؟، وما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعا كهؤلاء المجددين في العربية([٤٣])"!! ..

أما قضية "إعجاز القرآن الكريم": فقد كان كتابه" إعجاز القرآن" قنبلة ألقاها على معسكر التغريب ، في آنٍ ظن فيه خصوم الإسلام والعربية أنهم قادرون على تقويض الفكر الإسلامي دون أن ينتبه إليهم أحد .. يقول الشيخ رضا: إنه رد على الفئة من الزنادقة والملحدين الصادين عن دين الله الذين أخذوا في الطعن في الدين واللغة العربية وآدابها ... و دعوتهم للناطقين باللسان العربي المبين إلى هجر أساليب الأولين ، وإتباع أساليب العصريين .." ولعل الغرض من ذلك كما هو واضح النيل من عقيدة المسلمين و تراثهم المدون باللغة العربية الفصحى ..

ورد الرافعي عليهم بأنهم قوم يجهلون أسرار اللغة العربية و أسرار بيانها فكان سببا في جعلهم يرون القرآن الكريم كلاما من الكلام يجرون عليه الحكم الذي يجري على غيره .

ومن الآيات التي تناولها ، (**ولكم في القصاص حياة / حتى إذا بلغ مغرب الشمس/ زين للناس حب الشهوات ...، / كأنهن بيض مكنون**) ، وغيرها من الآيات الممتلئة بالإعجاز و البلاغة ، مثلها مثل بقية القرآن المعجز . " ولا يجادل في إعجاز القرآن – كما يقول الرافعي – إلا من قلع مخه من رأسه .." و لم يأت دين من الأديان بمعجزة توضع بين أيدي الناس يبحث فيها أهل كل عصر ، غير الدين الإسلامي بما أنزل فيه من قرآن ، فكأن النبوة في هذا الكتاب – القرآن – متجددة أبدا يلتقي بروحها كل من يفهم دقائقه و أسراره ..".

سابعا : كتاب وحي القلم :

صدر هذا المؤلف في ثلاثة أجزاء تشمل نحوا من ستين ومائة فصل؛ تنوعت بين المقال في الأدب والدين والاجتماع والقصص والبحوث و الدراسات في شتى الأفكار والموضوعات التي عنت للكاتب، دبجتها قريحته بأسلوب يمتاز

(٤) الرافعي ومي ص:٥٤ عبدالسلام هاشم عبد الحافظ ـــ

بالبلاغة والسلاسة والجزالة والرصانة والبيان، وتارة يعمق حتى يصبح فلسفة خاصة تنبع من ذات الأديب المؤمنة بقيم وأفكار جمالية وإيمانية وإنسانية له فيها رؤية خاصة ربما تختلف عن رؤى وتتصادم مع الكثيرين من أدباء عصره ومفكريهم وكتابهم ونقادهم .. فكان هذا الكتاب دفاعا عن القيم والتعاليم والعقيدة الإسلامية والأفكار في تصورها الفطري المنبثق عن الرؤية الإسلامية للعملية الإبداعية التي حاول أن يعالج بها وعبرها كل هذه المشكلات التي تناولها في دراساته في هذا الكتاب الضخم(٤٤)"...

بهذا الكم الهائل من المؤلفات ذات الأسلوب المتميز بخواصه التي يعرف بها في الأداء، ومعالمه التي لا يشابهه فيها أسلوب آخر في المضمون ، أصبح الرافعي يتبوأ مكانه على رأس مدرسة أدبية جمعت العريان ومحمد محمود شاكر..." ما تزال

---

(٤٤) وغير هذه المؤلفات للرافعي هناك بعض المؤلفات الصغيرة من مثل كتاب النشيد المصري (إلى العلا) و الذي يقول فيه :

إلى العلا ، إلى العلا بني الوطن
إلى العلا كل فتاة و فتى
إلى العلا في كل جيل و زمن
فلن يموت مجدنا كلا و لن ..

* ومؤلف آخر أصدرته صحيفة (الحال) في ست عشرة صفحة و به قصيدته الإجتماعية " التبرج":

دلالك في التبرج من ضلالك
و ما عاب الدلال سوى دلالك
لمن تتبرجين و ذي سبيل
و ما هي أفق شمسك أو هلالك
أما تخشين أنك في طريق
يوف به الحرام على حلالك
و أن ذئاب هذا الحسن تمشي
مسعرة اللحاظ على غزالك

إلى أن يقول :

كأنك لست بنت أب و إلا
فما لأبيك لم يخطر ببالك
أأخت أنت أم زوج و أم ؟
فما منهن واحدة كذلك !
و حالك للأبوة كل عار
و عار للبنوة كل حالك !
برزت لقتل ذلك أم لهذا
فما هذا و ذلك من رجالك !!..

حية قوية ممتدة ، أبرز معالمها الإيمان بأخلاقية الأدب و إسلامية الفكرة ، والارتفاع فوق أساليب الانحلال و النفاق " .

إنها مدرسة الأدب الإسلامي الذي يبحث من خلال تعبيره الفني المؤثر الهادف عن العلاقات السامية بين الإنسان وربه وصلته بالكون والحياة والإنسان(٤٥) ..

الرافعـــي وإبداع القصة

إن المطالع لتراث الرافعي الأدبي سيما في كتابه الأثير " وحي القلم " في أجزائه الثلاثة، ليظفر بكثير من ألوان القصص الأدبي الرفيع ، وإن كان الرافعي غير معني أو مهتم بكتابة القصة ، بوصفها فنا إبداعيا له قيمه ، وقواعده وطاقاته، ووسائطه الفنية المعتبرة ، لدى نقاد هذا الفن . بل كانت له خصوصيته الإبداعية الفريدة التي تطبع أدبه بطوابع خاصة ، ربما تختلف عن كثيرين غيره من كتاب عصره " لم تكن الكتابة عند الرافعي فكرة ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فنا وأسلوبا وصناعة ؛ والأدب العربي منذ كان إلى أن يطوى تاريخه بين دفتين ، هو فكر وبيان ، ما بُدٌّ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدبا يستحق الخلود. ذلك كان رأي الرافعي ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت في خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيئ لها الثوب الأنيق الذي تظهر به لقرائها؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة"(٤٦)..

".. وأول ما يعنيه في ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعنى العبارة التي يبدأ بها والتي يختم، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام في الموضوع . شأنه في ذلك شأن القاص: تجتمع له أسباب القصة بمقدماتها وحوادثها وما آلت إليه مرتبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ، قدَّم وأَخَّر، وأظهر وأخفى، وبدأ القصة بما لم تبدأ، ليعقد

(٤٥) راجع مقالنا: في مجلة "منار الإسلام" في العددين الثاني والثالث / يوليو وأغسطس ١٩٩٤م ـــ أبوظبي.

(٤٦) حياة الرافعي . ص : ١٨٢ ـــ محمد سعيد العريان ـــ مطبعة الرسالة ـــ أولى ـــ ١٩٣٩م ـــ مصر .

(العقدة) ويرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته....وكذلك كان الرافعي يفعل فى مقالاته ... فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبته ... ([٤٧]) " .

وهنا يتضح أن الرافعي في إبداعه ــ أيا كان نوعه أو فنه ــ كان يتماس بدرجة ما مع فن القصة، ومستفيدا من طاقاتها ووسائطها الفنية في ممارساته الإبداعية المتعددة والمتنوعة . وهو ما أقره وكشفه في إحدى إسهاماته في كتابه([٤٨]) ، " حيث يقول تحت عنوان " فلسفة القصة .. ولماذا لا أكتب فيها ؟ " :

"لم أكتب في القصة إلا قليلاً ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي..."

.. أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر، والقبلة التي اتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكِّن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أمسُّ من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إليَّ دائمًا أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبدًا في موقف الجيش " تحت السلاح ": له ما يعانيه وما يكلفه وما يحاوله ويفي به ، وما يتحاماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضت الجيش رأيته فنَّ نفسه ، لا فنك أنت ولا فن سواك ؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ .

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا، ثم تقرأ فتبقى قصصًا ؟ وإن هي صَنعت شيئًا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات ؛ تكون مسكنات عصبية إلى حين، ثم تنقلب هي بنفسها بعد قيل إلى مهيجات عصبية ؟ .

وأنا لا أنكر أن في القصة أدبًا عاليًا، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء في

---

(٤٧) السابق . ص: ١٨٢ ــ.

(٤٨) وحي القلم جـ ٣ / ٢،٣ وما بعدها

العلم والفضيلة ؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون، وطريقة ممحصة، وغاية معينة ؛ ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم ، لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء ، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها ، وتشرع فتضع أصح قوانينها.

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص ، فهم في الأدب رعاع وهمج ، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز، هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها .

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل ، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو، تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب؛ وهذا عندي هو فوق ما بين فن القصة وفن التلفيق القصصي!! [٤٩]" .

فالرافعي في حديثه لم يرفض القصة بوصفها فنا أو أدبا عاليا، ولا يكون كذلك إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الفضاء الروائي بأسلوب سواء في العلم والفضيلة، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا للأفذاذ الذين تنصبهم مواهبهم ؛ لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة ، وتثيرها الحياة ، وللأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها، وتشرع فتضع أصح قوانينها.

ولكنه يرفض من القصة النوع الذي يمارس إبداعه أولئك النفر الذين سماهم "رعاعا وهمجا!!"، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى

(٤٩) وحي القلم ص: ٣/ ٢٠٤ .

الغرائز، هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها.!!!

ففن القصة بطاقاته الإبداعية وتقنياته الفنية لم يكن بعيدا تماما عن وعي وإدراك الأديب مصطفى صادق الرافعي، سواء على مستوى ما دبجت ريشته من مقالات، أو نسجت من فضاءات القصص، وإن كانت قصصه بالقدر الذي لم يصنفه بين أدباء عصره كاتب قصة!! وإن كان لم يتحرر من توظيف طاقاتها وتقنياتها الإبداعية في كل ما كتب !! .

يقول محمد سعيد العريان عن هذا الجانب في أدب الرافعي(٥٠) :

" والحقيقة أن الرافعي كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة ، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه، حين كان يتعمد العبث والتسلية، فيطوى من الحديث وينشر، ويكتم ويوري، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجد؛ ويطوي النادرة إلا آخر الحديث، ويقول في آخر المقال ما كان ينبغي أن يكون في أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها ، لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع ؛ وإن له في هذه الفكاهة لمذهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهانا علي ذلك؛فقلما تخلو إحداهما من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة.

... وهذه هي كل أدوات القاص الموفق؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين. ولكن الرافعي كان يجهل طبيعة نفسه، وكان له في كتاب القصة ما قدمت من الرأي، فكان تخلفه من هذين ! .

وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك، لم يكن له مذهب فني خاص يحتذيه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته، غير ملق باله إلى ما رسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها؛ فإننا لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصة له وحده، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب

(٥٠) حياة الرافعي ص: ٢٠٦ .

المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلف، أو ابتكار وتجديد .. " .

يقول الأستاذ الدكتور كمال نشأت ناعيا عليه وعلى جيله عدم معرفتهم بالوسائط الفنية التي يوظفها كتاب القصة في الغرب الأوربي في إبداع قصصهم(٥١): لقد حاول المنفلوطي والرافعي كتابة القصة ففشلا(!!) ، ذلك أنهما لم يعرفا فن كتابتها ولا منطقها الخاص . والحق يقال : إن القصة حتى على يد الرعيل الأول من القصاصين الذين تفرغوا لكتابتها كانت ناشئة كثيرة العيوب، ولقد كان الرافعي يفهم (القصة) بمعنى (الحكاية)، فهو يحكي ويسرد ويستطرد إلى موضوعات لا تمت بصلة إلى موضوع حكايته، ويرجع ثانية إلى هذا الموضوع ، دون أن يمنطق حكايته مَنْطَقة فنية ، ودون رعاية لشروط معينة لابد منها لتكون القصة قصة بالمعنى المتعارف عليه بين الأدباء والنقاد !! "

لكني لا أوافق الدكتور نشأت هكذا على ما دمغ به رأيه في الرافعي، وإن كان يعود فيلتمس له الأعذار(٥٢): شأن جيل الرافعي الذي لم ينشئ قصصا على غرار ما يعرفه كتاب القصة في الغرب!! وجاءت محاولاتهم مليئة بالعيوب الفنية!! وإن كان في هذا إجحاف في الحكم هكذا على جيل من الكتاب يرتاد ربما مجالا جديدا، وبابا مشرعا في جدار ما يزال صلبا، يتحسسون الخطو نحو إيلاجه بحذر وروية ، سيما وكل من كان يحاول الخروج من شرنقة التراث والحضارة

---

(٥١) مصطفى صادق الرافعي ص : ١٠٩ وما بعدها بتصرف ، تحت عنوان : الرافعي قاصا . وعلامات التعجب من عندي ..

(٥٢) حيث يعيد ذلك القصور منه لكونه كان لديه عاهة ضعف السمع التي باعدت بينه وبين الناس وحالت دون خبريه بتجارب الحياة والناس بالقدر الذي يفتح له مجالا خصبا لعملية الإبداع القصصي، ومن ثم عندما حاول الكتابة القصصية كان أبطاله من عالم القراءة لا عالم الواقع، فهو يرجع إلى بعض الشخصيات التاريخية التي حكت كتب الأدب أو التاريخ بعض أخبارها، ويخلق من هذه الأخبار وما بسبيلها حكاية تستهدف غرضا ، فهو في قصة زواج يتحدث عن سعيد بن المسيب، وفي (سمو الحب) عن عطاء بن أبي رباح ، وفي (بنته الصغيرة) عن مالك بن دينار والحسن البصري ، فإذا أدار حول هذه الشخصيات وأمثالها قصصا جعل لها هدفا أخلاقيا كعادة الرعيل الأول من كتاب القصة عندنا " راجع كتاب مصطفى صادق الرافعي ص: ١١٠ د. كمال نشأت .. ولا أعرف هل الرافعي لم يكن من الرعيل الأول ومعاصرا لإنتاج أول رواية مصرية ؟؟!!.

العربية والإسلامية ، في وقت يشهد هجوما وتطاولا على كل ما هو قديم وتراثي من نتاج العرب وتاريخهم ، لا لشيء إلا لقِدَمِهْ وتراثيته فضلا عن قيمته وقدره وحيوية وجوده ، وأصالته !! كان يتهم بالتغريب والتنكر للحضارة ، ما جعل الكثيرين ومنهم الرافعي وغيره يتحسسون الخطو نحو مثل هذه الفنون الجديدة ، وإن كان لم يرفضها أو يهاجمها ، بل حاول برؤيته ومفهومه الحكائي لما يمكن أن يسمى : قصة في رأيه أن يخوض البحر ، ولم يتهيب تجربة السباحة فيه ، إلا أن الرياح لم تكن مواتية بالقدر الذي يجعله ماهرا بركوبه !!..

أما عن منهجه في كتابة القصة، أو طريقته ــ على حد تعبير العريان ــ التي تكشف عن حرفته الفنية ورؤيته في تشكيلها الفني ، يقول : للرافعي " طريقة في كتابه قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القصاص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته في أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر في الحادثة أول ما يفكر، ولكن في الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الأدبي ، ثم تأتي الحادثة من بعد ؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من القصص ، جعل همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ- على طريقته في إنشاء المقالات – فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة إلى ما يريد ، فكان بذلك قد انتهى إلى موضوعه، فليس له أن يفكر في أسلوبه الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدى موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة ، فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد. فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه، فيقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيئته، وخلانه ، ومجالسه ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل ؛ وإنه ليلهم أحيانا ويوفق في ذلك توفيقا عجيبا ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور، أو إلا أسماء الرجال...(٥٣) " .

على أن البديع في ذلك هو قدرة الرافعي – يرحمه الله – على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحسن إحساسه ويتكلم بلسان أهله ،

(٥٣) حياة الرافعي ص :٢٠٧

حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة الرافعي في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء ...

وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار؛ فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها ــ ورأيه في القصة رأيه- ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتى له ذلك من طريقته التي أشرت إليها في الحديث عنه عندما يهم بالكتابة ؛ فقد كان يحرص على أن يعيش وقتا ما قبل الكتابة في جو عربي ، فيتناول كتابا من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلا ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله ؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة . ولكل شيء سبب . وأحسبه لما هم أن يكتب عن (المعجزة المالية) في تقاليد الزواج وعن فلسفة المهر، وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك ، تناول – كعادته – كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر، فاتفق له في مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبى وداعة ؛ فراها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدا له أن يؤدى موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعاني ليملي علي هذه القصة قال لي في لهجة الظافر: " .. لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا أعرف أبلغ منه في موضوعه...." فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب في القصة كان اتفاقا غير مقصود، صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا([٥٤])" .

وأكثر قصص الرافعي من بعد على هذا المذهب. على أن لكل قصة من هذه القصص – أو لأكثرها – أصلا يستند إليه من رواية في التاريخ، أو خبر مهمل في زاوية، يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعي الفنية، وإحساسه ويقظته؛ على أن أهم ما أعانه على ذلك هو عندي، صلته الروحية بهذا الماضي، وشعوره بالحياة فيه ، كأنه من أهله ومن ناسه؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضي قلبا ينبض كأن له فيه ذكرى حية من ذكرياته ، تصل بين ماضيه وحاضره، فما يقرؤه تاريخا كان، وانطوت أيامه، ولكنه يقرأ صفحة من

(٥٤) حياة الرافعي ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ . سابق .

ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحي بين أهله، فما أهون عليه بعد أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء!"(٥٥) .

تلك كانت طريقة الرافعي في كتابته للقصة في أدبه. كان يعود بها موضوعا وفكرة وحتى تشكيلها الفني إلى التراث العربي القديم، الذي يثق بجديته، ورصانته، وبكارة مادته مهما توالت عليه الأعصر أوالأزمنة ، فقد كان يجد ذاته، وزاد أدبه ، في هذا التراث العربي العريق، والذي خلفه أدباء أفذاذ ممن كانت مجالس أنسه لا تخلو من أحدهم أو كثير منهم؛ ولذلك وجدنا قصصه على تلك الصورة من المقالات في وحي القلم: ففي الجزء الأول نجد على سبيل المثال لا الحصر :

قصة اليمامتان ، وحديث قطين ، وبين خروفين ، وهذه تعد من القصص على لسان الحيوان كما في كليلة ودمنة . ثم نجد قصة : الطفولتان ، وأحلام في الشارع ، وأحلام في قصر الباشا ، وقصة زوجة إمام في حلقتين ، وقصة الطائشة في حلقتين كذلك . وأرملة الحكومة ، والجمال البائس في خمس حلقات ، والله أكبر، في اللهب لا تحترق .

وفي الجزء الثاني نجد قصة : عروس تزف إلى قبرها ، وقصة أب ، والسمكة، والزاهدان، وقصة الأيدي المتوضئة .

وفي الجزء الثالث نرى قصة : شيطان وشيطانة ، وقصة العجوزان في خمس حلقات .

مما يضفي لون القصة على كل مقالات وموضوعات كتاب وحي القلم . لكن بالأسلوب الذي يرتئيه الرافعي ، والطريقة التي يفهم بها عرض أفكاره ، في هذا الثوب القشيب الذي يستخرجه من خزانات التراث العربي الأصيل .

وليس الارتكان إلى التراث ، أو الهجوع على أرائكه تعصبا أو إنكارا للجديد والتجديد في الأدب والإبداع كما كان يدعي عليه شانئوه !! لكن اختياره لهذه المدرسة ، الفريد في سلوك دروبها ، كان اختيارا عن يقين بأنه ليس كل جديد جدير بأن يلقى من الاهتمام والاحترام ، وليس كل قديم جدير بأن ينحى ويوصف

(٥٥) السابق ص : ٢٠٨ .

بالتخلف والرجعية ودعوة إلى الظلام أو الارتكاس في غياهبه !! وإنما الرافعي الأديب الفذ في عصره على كثرة الأفذاذ فيه !! لم يكن أبدا رجعيا ولا متخلفا عن معطيات العصر في مجال الثقافة أو الفكر أو الإبداع ، " لم يكن منغلقا على نفسه ولا منكفأً على ذاته ولا مقتصرا في اطلاعه على التراث الإسلامي فحسب ، بل هو رجل موسوعي منفتح على الثقافات الإنسانية ومنها الثقافة الغربية التي كان يرى فيها بعض التغريبيين أنها الوجه الأوحد للتحرر و التجديد !! ومن ثم لا نراه يتفاخر أو يتعالى على الناس بمعرفته لهذا الفكر أو معرفته بمفكريه بل يأتيه على هون مستشهدا وملمحا ومستفيدا في غير ما فخر وادعاء .. ولا تضاؤل للذات أو انسحاق أما ذلك الفكر والأدب ، فلذلك يطالعك في أدبه أعلام من الغربيين أفذاذ لا ينتقص منهم ولا يحتقرهم كما يزعم أولئك الذين يرونه خصما وعدوا لدودا لكل ما وفد من الغرب([٥٦])". وهكذا يتجاور في تراث الرافعي أعلام الغرب وعباقرته مع أعلام العرب وعباقرتهم ويتحدث عن شكسبير وأناتول فرانس ولامرتين وفيكتور هيجو بالإعجاب نفسه الذي يتحدث فيه عن امرئ القيس والمتنبي وغيرهم من فحول العرب دون تهيب أو تعصب([٥٧]) بل يعرض لهذا في أريحية وفخار ربما لم يسبق إليه مثل ما فعل مع كتاب سر النجاح للعلامة الدكتور يعقوب صروف : هو والله في باب القدوة في ناموس. وعن قولة مترجم هذا الكتاب الذي يشهد فيها بأنه : لم ينتفع بكتاب قدر انتفاعه بهذا الكتاب ، يعقب الرافعي : هذه الكلمة لا يقول غيرها من يطالع سر النجاح، ولا يمكن أن يقول غيرها . ويسوق مبررات كثيرة لذلك([٥٨])!!

من ثم نجده لا يرفض هذه الفكرة بقدر ما يؤكد على الهوية الحضارية للأدب الحضاري للأمة ذات خصوصية حضارية يريد لها بعض من أبنائها أن

---

(٥٦) أصالة التجديد وتجديد الأصالة عند الرافعي ص: ٥ حسن الأمراني مقال منشور بمجلة "الأدب الإسلامي العددان (٤٣، ٤٤) المجلد (١١) ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م عدد خاص بالرافعي.

(٥٧) المطالع لكتابه (وحي القلم) يجد في الجزء الثالث منه كثيرا من النماذج ما يؤكد هذه الفكرة ويؤيدها .

(٥٨) راجع : وحي القلم ج ٣/ ٣٠٦

تذوب وتمَّحي من واقعها وتتلاشى من تراثها وتتنصل من لغتها والمقصد دينها لا غير !! ولنسمعه يقول(٥٩) :

"لست أنكر التجديد،... إنما أنكر شيئًا واحدًا، وهو أن يقال مذهب قديم ومذهب جديد ؛ فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، ولكن أصحابنا يريدون ألا نكتب إلا نمطًا بعينه ، ولا نذهب إلا مذهبًا بعينه ؛ لأن كل ذلك هو الجديد؛ فأيهما خير لنا ولهم وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتد اللغة والأدب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونحكم هذه اللغة ونحفظها ، وندفع عنها ونجعل تجديدها كتجدد الحسناء في أثوابها وفي ألوانها دون تشويه ولا مسخ ولا مس الجسم الجميل ، أن تقول: هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتلئ الخدل ، وهذا الموضع الهضيم الناحل ، وتعال يا دكتور هات المبضع والمشرط والمقص والمنشار والإبرة والخيط وإذن...؟

"لقد أذكر أني رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو في بعض ما يقرظ به الكتب أنه قال: إن القديم قد أثبت دائمًا أنه أقوى وأمتن وأصح ؛ فهل رجل عن هذا الرأي أم ظهر في الجديد ما هو أقوى وأمتن وأصح؟ ثم يا أيها الملأ أفتوني ما هو هذا الجديد؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون، أم تلك الشهوات المتوثبة المتلهفة ، أم ذلك الأسلوب الفج المتسوخم ، أم العامية السقيمة الملحونة ؛ أم هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل أن تتم الأداة وتستحكم الطريقة ؟، كما هو شأن فريق من الكتاب ، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد – وبين غربة في التعصب للآداب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر– وبين رغبة في الحط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به، كل ذلك في تعبير علمي يصح أن يكون نظرية علمية... وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم: (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[٦٠]) فقد

(٥٩) السابق ٣/ ٣١٥ .
(٦٠) سورة الأنفال آية :٣١

شاءوا فلم يقولوا ؛ ولو أن المذهب الجديد فسر القرآن يومًا.. لقال في معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا بهذا المذهب القديم([٦١]) "...

"وأنا وأمثالي إنما نحرص أشد الحرص على هذه اللغة ؛ لأنها أساس الأمة الإسلامية فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتًا متينًا لا يزعزعه شيء ولا يثلمه شيء ولا يضعفه شيء([٦٢]) ؛ لأن اللغة هي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها ، وجودًا متميزًا قائمًا بخصائصه ؛ فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة؛ والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الروح ودليل الحسن على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها ؛ فإن روح الاستعباد ضيق لا يتسع ، ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة ([٦٣]) " .

" وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته ، وكونه سيد أمره ؛ ومحقق وجوده ، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه ، فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية، وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإيثار غيرها بالحب والإكبار؛ فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع ، ضعيف عن تكاليف السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مجتزئ ببعض حقه، مكتفٍ بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان([٦٤])".

ومن ثم " كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ ، لا صورة محققة في وجوده ؛ فليس كاللغة نسب للعاطفة

---

(٦١) وحي القلم ص ٣/ ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٦٢) وحي القلم ص :٣/ ٢١٦ .
(٦٣) وحي القلم ص : ٣ /٢٦
(٦٤) وحي القلم ص: ٣/ ٢٦

والفكر... وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار(٦٥) ".

لذلك لا تؤتى أمة في دينها وكيان وجودها إلا عبر لغتها، فإذا تمكن الأجنبي من لغة أمة سرعان ما يأتي على كل مقومات وجودها في الحياة. وأول هذه المقومات، سيكون دينها، الذي تعتصم بحبله المتين، وتستمد منه وجودها وحضاريتها. "فالدين هو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمة، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية، عالية ونازلة وما بينهما ، فهو بذلك الضمير القانوني للشعب، وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية ، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب(٦٦) ".

" وكل أمة ضعُف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض ؛ فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض؛ وذلك لتنتظم الغايات الأرضية في الناس فلا يأكل بعضهم بعضا ..... وما دام عمل الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله ، المعتز بقوته، المطمئن إلى صبره، النافر من الضعف، الأبي على الذل، الكافر بالاستعباد، ومفاداته ، العامل في مصلحة الجماعة ، المقيد في منافعه بواجباته نحو الناس؛ ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق فيكون الدين في حقيقته هو جعل الحس بالشريعة أقوى من الحس بالمادة؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وانطبعت عليه.

وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن تشرف وتسود وتعتز، ويكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذل... وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها، فلا يسهل انتزاعه منها ولا انتساقه من تاريخه ؛ وإذا ألجئ إلى حال من القهر لم ينخذل ولم يتضعضع، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة إن لم تُترك لنفسها، لم تعط من نفسها إلا الوخز...(٦٧)"

---

(٦٥) وحي القلم ص :٣/ ٢٦
(٦٦) وحي القلم ص : ٣/ ٢٨
(٦٧) السابق ص : ٣ / ٣٠ .

ومن ثم "فليس كل جديد قادرا على الاستمرار سيما إذا فقد الجديد علاقته بالجذور من ناحية ، وبالواقع من ناحية ثانية ، أي إذا فقد أصالته التي تمنحه ــ على ــ جدته ــ شروط الاستمرار والتحول مع الزمن ... والانطلاق من الجذور لا يعني التقليد ، والانطلاق من الواقع لا يعني الذوبان في الواقع ، بل الانطلاق منه ، وتجاوزه ، ومحاولة تغييره والتغلب على تياراته السلبية، فالتأثير"الفاعل" للفن في الواقع لا يمكن أن يتحقق عن طريق موازاته لهذا الواقع وتمثيله له، بل عن طريق الاشتباك معه والتقاطع مع اتجاهاته ، إن الموازاة ستقتل فاعلية الفن وتأثيره في الطرف الآخر "الموازي" . أما التقاطع فهو الذي يجعله قادرا على التغيير، وتحريك ما يتقاطع معه من مقومات الواقع ؛ إن الإبداع والتفوق لا يتحققان في أن ينسج الإنسان على منوال عصره ، فيكون صورة عن الداء ، بل أن يكون صورة معكوسة أو مناقضة له ؛ ليست المهارة في أن نسبح باتجاه التيار، بل المهارة في أن نسبح بالاتجاه المعاكس ؛ لنصل إلى الأرض التي نختارها نحن لا التيار، وهذه الحقيقة وحدها تجنينا السقوط في التقليد والسير على خطى الماضي دون أدنى محاولة لتطويره ، وتبعدنا عن خطر الذوبان في الواقع وإلغاء دورنا الفاعل فيه . فالتجديد أو الحداثة من هذا المنظار هي انطلاق المبدع من الواقع وتجاوزه له ، لوضع قواعد جديدة لا تلغي القديمة بل تضيف إليها ، أو لتطوير تلك القواعد القديمة ــ ولا نقول تغييرها ــ أو لتغيير الأعراف القديمة تغييرا لا يمس القاعدة ... إن المبدع إذ يتجاوز الواقع لا بد أن يكون مرتبطا بالماضي ، لأن الواقع ليس هو اللحظة الراهنة منفصلة عن ذلك الماضي، بل هو كلاهما معا : الواقع هو الحاضر مرتبطا بالماضي ، وكل لحظة زمنية لا يمكن أن تنفصل عن اللحظة التي سبقتها ، ولو قبلنا بمبدأ الفصل بين اللحظات التي يتكون منها الزمن لكان هذا يعني وجود زمن مستقل بين اللحظة وسابقتها أو تاليتها ، وهذا علميا مثيرا للسخرية ، وإذن فقولنا : إن الحاضر منفصل عن الماضي قول يدعو إلى مثل تلك السخرية ([٦٨]) ".

([٦٨]) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد ص : ١٦٦، ١٦٧ أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥ م ــ جدة .

إذا كانت هذه رؤية الرافعي في إبداع الأدب القصصي في ثوبه التراثي ، ومنهجه الإبداعي ، ورؤيته الإنسانية الفعلة في عملية البناء الحضاري ، الذي يحقق من ورائها الغاية أو الهدف من الإبداع سواء الأدبي بعامة أو القصصي منه بخاصة ." ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافًا إليها الفن، ويجيء التعبير مزيدًا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها، وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني ، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معًا؛ وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها... ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني ، وغيره هو الإنسان فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها؛ إذ كانت فيه مع خاصة الإنسان خاصية الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضًا منها؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له، والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء، أولٌ فيه لشيء .. والأدب يشبه الدين: كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريب من قريب ؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهي، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ؛ والدين يوجه الإنسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ؛ وذلك وحي الله إلى المَلَك إلى نبي مختار، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار([٦٩]) !!.

---

(٦٩) وحي القلم ص: ٣ / ١٧٢، ١٧٤

* * * * * * * * * * * * * * * *

الرافعي و إبداع الشخصية

ينطلق الرافعي في إبداعه الفني في رسم شخصية النبي محمد (ﷺ) من منطلق الرؤية الإسلامية التي تشكل هويته الإبداعية و الحضارية والفكرية ، والتي كان ينصب من نفسه حارسا أمينا على ثغر من ثغور العربية والإسلام ، خلقت هذه الخصوصية عنده ما يمكن تسميته بـ"نظرية المزج بين اللغة والدين، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة ... فإنه بالضرورة يحارب الإسلام . ومن ثم ، كان الرافعي" مدرسة وحده ، تجمع إلى جانب التجويد في الفكرة، التزام صفة الإسلامية، والمحافظة على الجملة القرآنية، لأنه بالإضافة إلى تربيته الإسلامية، عاصر المحاولات الكثيرة المتعددة الحيل، للنيل من اللغة العربية ومحوها أو استبدالها بالعامية(٧٠)".

يقول الرافعي: "إن القبلة التي أتجه إليها في الأدب هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبقيها حية، ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكّن لفضائلها وخصائصها في الحياة. ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا، ثم إنه يخيل إليَّ دائما أنني رسول لغوي، بعث للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا دائما في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه، وما يحاوله، ويفي به وما يتحفظ عليه، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها(٧١)".

إن تشكيل الشخصية في الإبداع الروائي النبثقة رؤيته عن التصور الإسلامي، مثلها مثل أي شخصية من الشخصيات في تجسيدها لهذه المعاني، أو تلك الأدوار، لكنها معان أو أدوار ينبغي أن تنطلق من التصور الإسلامي لهذه المعاني، أو تلك الأدوار، تصور مستقل للوجود والحياة، تصور كامل ذو خصائص متميزة، ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة ، يخالف سائر التصورات الجاهلية قديما وحديثاً، وإن التقى معها في جزئيات عرضية، فوظيفة الإسلام هي أن ينشئ حياة إنسانية توافق هذا التصور، وتمثله في صورة واقعية، وأن يقيم في الأرض

---

(٧٠) مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا ، ص :٢٠، ٢٨ بتصرف د. مصطفى الشكعة ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٨م ــ لبنان.

(٧١) السابق ص : ٥٠ ــ فيما نقله عن الرافعي من وحي القلم .

منهجًا، أو نظاماً يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله ــ عز وجل ــ، فتتحقق خيرية هذه الأمة قال تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ...﴾(٧٢).

والحديث عن الرؤية الإسلامية لبناء الشخصية عند الرافعي ــ شأن الأدباء الإسلاميين ــ يدور في محورين ، أولهما ــ الدين، بوصفه محضناً وجدانيًا وفكريا للشخصية ، وثانيهما السلوكيات أو الأفعال المنبثقة من قيم العقيدة أو الدين الذي يشكل هويتها ، بوصفها ثمرة لهذا الدين الذي يشكل هذا الوجدان أو الفكر الذي يصنع هوية الشخصية ، ويمثل لها الإطار الذي تتحرك داخله ، وهو يحيطها بسياجه نفسيًا وروحيًا .

فالشخصية التي تنبع أفكارها ، ورؤاها ، وتصرفاتها ، من هذه التصور الإسلامي الشامل، تصبح أنموذجًا يقترب من المثالية الإسلامية التي تجمع بين السماء والأرض في تكوينها ... فيلتقي فيها الواقع المعاش بالمثال في حقيقة الحياة، فتتميز عن غيرها من الشخصيات "برد فعل معين تجاه الأحداث، وتخطئ وتصيب كطبيعة البشر، لكن عطاءها النهائي، أو محصلة سلوكها، توحي بالأمل، وتترك التأثير المقنع، وفق قناعات فكرية، وفنية، مقبولة لدى المتلقي ... وهي شخصية ترمز إلى قيم الحق والخير والفضيلة وتُصارع نزواتها وضعفها وهواها بالطريقة الطبيعية ، وعلى ضوء المنهج الإسلامي أو التجربة الحضارية للمجتمع المسلم الصحيح؛ لأن تجسيد المبدأ، أو القيم في واقع يتحرك حركة منطقية له أعمق الآثار وأجلها في بناء المجتمع النظيف)(٧٣) .

فشخصية المسلم في عملية الإبداع عند الرافعي ، ينبغي أن تكون صورة للأنموذج، الذي ينطلق في كليته من عقيدة الإسلام في حاله وترحاله ، في فرديته وجماعته، في كل تصرف يتصرفه في الواقع المعاش ، وينبع من هذه الفطرة السليمة فطرة الإسلام﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

(٧٢) سورة آل عمران آية: ١١٠ .
(٧٣) رحلتي مع الأدب الإسلامي : ص ٦٩ نجيب الكيلاني ــ الرسالة ــ أولى ١٩٨٥م. بيروت. بتصرف .

اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٧٤) ، فلا ينفصل فعله عن ذاته فيقع في المحظور ، وإن حدث ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٧٥) فلابد أن يسمو فوق هذا الإغراء الفطري فيه ، بأن يجعل الحق في كسب المال ، والخير في سلوك أبنائه، فالإسلام ينظر للكائن البشرى على أنه بشر " يشمل نوازع فطرية تربطه بالأرض، لأن الحياة ــ في أهدافها العليا ــ لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع ، قوية ملحة ، يتعذر الفكاك من عقالها ، ولكنه يشمل في الوقت ذاته نزعة فطرية أيضًا تهدف به إلى الارتفاع والسمو ، ومحاولة الانطلاق ــ ولو قليلا ــ من روابط الأرض" (٧٦).

فالإنسان في التصور الإسلامي هو " هذان العنصران المختلفان الروح والجسد ، المترابطان الممتزجان في كيان واحد ... قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ... قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية ... وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض ، ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية ، وقوة الوعي المدركة ، وقدرة النفس المريدة ... وهذان معا يكونان الإنسان"(٧٧)، المسلم، فلابد للمسلم أن يتمثل الواقع الذي يعيشه هو، منطلقا من ذاته التي رضيت العقيدة الإسلامية منهجًا ونظامًا يحكم تصرفاتها، وعلاقاتها، وعواطفها، وميولها، وغرائزها في تواد واقتناع "فالأديب ابن ذاته، والمعادلة المتحققة من لقاء الاقتناع الإسلامي، أو العقيدة الإسلامية، بالذات الإنسانية، ستنفجر حتما في شكل فني جديد، ومسارات فكرية جديدة؛ لأن النفوس الإنسانية لا يمكن أن تتشابه"(٧٨)، حتى وإن قامت على سنن وطبائع فطرية متشابهة؛ ومن ثم فالدين يعترف بالكائن البشري كما هو، فيحقق رغبات جسده،

---

(٧٤) سورة الروم آية ٣٠ .
(٧٥) سورة آل عمران آية ١٤ .
(٧٦) الإنسان بين المادية والإسلام: ص٦٩ محمد قطب ــ دار الشروق ــ التاسعة ــ ١٩٨٨م . القاهرة .
(٧٧) منهج الفن الإسلامي: ص٣٣ محمد قطب ــ دار الشروق ــ سادسة ــ١٩٨٣م. بيروت.
(٧٨) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد : ص ٣٥ . سابق .

وعقله، وروحه، ويهدف في ذات الوقت إلى إيجاد التوازن بين الجميع"[٧٩] ، وإذا كان الإسلام لا يضيق بنوازع البشر ، ويعترف " بالكائن البشري كما هو، فيحقق إنسانيته، فإنه بهذا يسعى إلى ترسيخ فكرة الاتجاه بالإنسان نحو المثال المتحقق في الواقع الإسلامي، الذي يجمع في مكوناته بين عناصر "الواقع القائم، واحتمالاته غير المنظورة، أو المدركة، الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع السماوي بحقيقته العليا، وروحانيته وإعجازه وقَدَره". [٨٠] .

والأدب الإسلامي الذي عني بالإبداع في ضوء رؤيته الرافعي ينظر للشخصية المسلمة ، في إطارها الذي يدنو بها نحو المثالية الإسلامية ، المشتملة على الكائن البشرى الذي خلقه الله على فطرته الصحيحة . إذ إنه أدب الشخصية الإسلامية في فكرها وسلوكها ، أو في مفاهيمها وميولها ، وذلك بالكشف عن دلالة المفاهيم والميول، وما يحقق الشخصية المميزة من ارتباط المفاهيم بالميول، وفق مقاييس عقدية تضبط عقل الأشياء والميل إليها .

فإذا كان الإسلام وأدبه يسعيان به إلى حيث السمو والارتفاع، فإنه لا يهمل في تصويره الشخصية لنواحي الضعف البشري في الذات الإنسانية ، في الوقت نفسه ، لكنه يصورها على أنها علل، أو غرائز، أو لحظات فقر إيماني ــ إن صح التعبير ــ لأن الانحراف والكلل معترف بهما في العقيدة الإسلامية بالنسبة للنفس البشرية : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[٨١]، وهنا تصبح " مهمة الأديب المسلم أكبر من تقديمه للشخصيات في إطارها المثالي، حيث تكمن في استنقاذ الجانحين، وإصلاح الفاسدين، وفتح باب الأمل أمام اليائسين، أو المترددين، والأخذ بأيدي التائهين، إلى طريق الحق والخير والجمال..."[٨٢]، فكل نهوض من سقوط وارتفاع من سفول وانطلاق من تقوقع، وانتصار على العلل والأمراض، يعد انتصارا وبطولة، والتخلص من هواجس الشك والريب، وقتل الخوف في النفس

(٧٩) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٦٩ . سابق .
(٨٠) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد : ص٣٣ . سابق .
(٨١) آية : ٨ من سورة الشمس .
(٨٢) مدخل إلى الأدب الإسلامي: ص:٥٥ . نجيب الكيلاني ــ كتاب الأمة عدد (٤٦) ــ أولى ــ قطر .

إلا من الله ، يعد بطولة ، وكل تعالٍ على غرائز النفس، وعلو الهمم في ذات المسلم يعد بطولة ، والتمرد على الضعف والانتصار للقيم والفضائل السامية يعد بطولة ... هذه البطولات تعنى انتصار الحق على الباطل، والخير على الشر في ذات السلم في حياته أمسه ويومه وغده ... " طريق هذا الانتصار في حياة المسلم ، طريقه التوبة التي جعلها الله باباً مفتوحاً أمام العبد حتى نهاية العمر ... وبهذا تصبح الشخصية الإسلامية ملتقى لكل القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام"(٨٣)؛ لتستقيم "علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالكون كله، وعلاقة الإنسان بالتاريخ، على أسس حضارية صميمة، تجيش بالحب، حين يجيش غيرها بالكراهية، وتلتقي على البناء، حين يلتقي غيرها على الهدم ، وتتوافق مع الفطرة الإسلامية السامية حين لا يتوافق غيرها إلا مع الأهواء " (٨٤) ... ها هي موازين الواقعية الصادقة في تصويرها للشخصية الإسلامية وإذا اختلت هذه الموازين رأينا شخصيات ممسوخة منفصمة عن الواقع الإسلامي الفطري، بحجة الواقعية أيضا، لكنها ليست واقعية الإسلام ... فالإسلام دين واقعي بفطرته ... أما هذه فواقعية مفروضة علينا من خارج أنفسنا وديننا .. أو قل: إنها واقعية منغلقة أو محصورة داخل هدف سياسي (الواقعية الاشتراكية مثلا).

وبناء الشخصية الإسلامية في التجربة الإبداعية يستلزم نظامًا يتواءم فيه الشكل الفني مع المضمون الفكري، إذ "إن الشكل والمضمون يؤثر كل منهما في الآخر"(٨٥) ... فلابد ــ إذن ــ من توافر مقومات عقلية ونفسية تميز المسلم عن غيره، من الأنماط البشرية في الحياة ... وفق منهاج تربوي ينطلق في أسسه وقواعده، من منطلق التصور الإسلامي، وخصائصه، تتواءم خلاله عناصر المادة، مع عنصر الروح، وعنصر الملموس مع عنصر الغيب، حتى تحفظ الشخصية الإسلامية صلابتها وصمودها أمام ما تطفح به الأيديولوجيات المنحرفة التي

---

(٨٣) السابق ص : ٥٦ بتصرف .

(٨٤) عن البطولة والبطل من المنظور الإسلامي : ص٩ د/ محمد العزب ــ مقال بمجلة "منار الإسلام" عدد (٨) السنة (٥) شعبان ١٤٠٠هـ ــ .

(٨٥) النقد الفني : دراسة جمالية وفلسفية : ص: ٦٨٩ جيروم سولينتز ــ ت.د/ فؤاد زكريا ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ثانية ــ ١٩٨٥م. القاهرة .

تخالف العقيدة الإسلامية وتعمل على مسخ شخصية المسلم ، وتزييف هويته وتحطيم دوره في الحياة ، وجعله تابعاً لا متبوعاً في حركته داخل إطار هذه الحياة ، حتى يبدو وكأنه مسخ عاجز ﴿ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾[٨٦] في كل تصرفاته ، وشؤون حياته ، فهذا ما يرفضه الإسلام من المسلم (حتى لا تضعف ذاته ، وتبقى متفردة ، رائدة سيدة لا تابعة ... مؤثرة صلبة تذوب في الحضارات بل تذوب فيها الحضارات، لتسمو الشخصية الإسلامية)[٨٧] بسمو العقيدة التي تنتسب إليها، ومنهاجها القويم في تشكيل الإنسان المسلم وتوجيهه في الحياة .

والشخصية في كل إنسان "نتاج متآلف لبعدين أساسين هما؛ العقلي والنفسي، وبهما يتوجه سلوكه المرتبط ارتباطًا تلازميًا مع المفاهيم (نتاج العقلية) والميول (نتاج النفسية) فتكون بذلك مفاهيم الإنسان وميوله هي قوام شخصيته"[٨٨]، تجرى في تكوينها، وبنائها، ببعديها على قاعدة معينة مستمدة من تصور معين .. فالشخصية الإسلامية تجرى في بنائها على قواعد وأسس مستمدة من العقيدة الإسلامية " إذ جعل الإسلام العقيدة الإسلامية عقيدة عقلية ، فصلحت لأن تكون قاعدة فكرية تقاس عليها الأفكار ، فهي فكرة كلية شاملة للإنسان ، والحياة ، والكون ، نظم بها الإسلام غرائز الإنسان ، وحاجاته العضوية تنظيماً صادقاً متناسقاً متوازنا ، يحول دون الكبت أو الإطلاق ، ويؤدى إلى استقرار الشخصية وطمأنينتها تلك الشخصية التي تكونت تكوينا معينا متميزاً عن غيرها من الشخصيات [٨٩] " .

إن إيمان المسلم بالغيب واليقين به، والتواصل معه ، كما يتواصل مع الممارسات العقدية الأخرى، أمر ضروري، ومتمم للعقيدة، حتى تتكامل الشخصية

---

(٨٦) من الآية ٧٦ من سورة النحل .

(٨٧) الشخصية الإسلامية بين الأصالة والتبعية ص ٤١ مقال للأستاذ عاطف شحاتة زهران ــ مجلة " الوعي الإسلامي " عدد (٢٥٩) رجب ١٤٠٦هـ ــ الكويت .

(٨٨) بناء الشخصية في القصة القرآنية ص ٩ . د / مصطفى عليان . دار البشير ــ أولى ــ ١٩٩٢ عمان / الأردن .

(٨٩) السابق: ص ١١ بتصرف . سابق .

في ذات الإنسان المسلم فتتفاعل القوى الجسدية مع القوى الروحية فتفرز نموذجا نقيا مستقلا في وجوده ، وإيمانه ، وعلاقاته بالكون والحياة والإنسان ، فاليقين بعالم الغيب "يتحول لدى المسلم إلى معنى إيجابي، ينشئ الدافع، ويربي الإرادة العازمة، ويحمي من السقوط، ويُشعر بالمسئولية، ويَعِدُ بالعدل المطلق ويُربي الرقيب والوازع الداخلي، ويحمي من الآفات النفسية، من اليأس والقنوط، ويُوقظ القلق السوي، ويُهوِّن المصائب ويغري بالتضحية، وإخراج إنسان الواجب"(٩٠) الذي يتمثل قول الله (عز وجل) في سلوكياته :﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٩١) .

فالمسلم في مجتمعه صاحب رسالة، تسير في اتجاه متوافق، ومتوازن، مع فطرته، وسر تواجده في هذه الحياة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٩٢) بحيث لا يختلف في هذا التكليف والتواجد في الحياة ، المسلم المثقف المتعلم، لا يختلف عن غيره إلا فيما يعبر به كل منهما عن كونيته وكينونته في هذه الحياة..

فالدين الإسلامي لا يعترف بما يسمى في الديانات الأخرى بـ"رجل الدين"، فالجميع في نظر الإسلام سواء. " فواقع الإسلام لا يعترف إلا بالكفاية الخاصة في العمل الخاص ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾(٩٣)، فالتفقه في الدين اجتهاد، كالتفقه في الطب أو الهندسة وسائر المعارف الأخرى ... من هنا يتضح "أن الدين ليس حرفة في الإسلام، إلا أن يكون اشتغالا بتعليم الناس، شأنه شأن أية مادة من مواد المعرفة الإنسانية الأخرى أو قضاء في أحوالهم المختلفة، شأنه شأن أي تخصص في عمل من الأعمال"(٩٤)، فالناس جميعًا؛ متعلمهم وجاهلهم، في العمل والجزاء فيما يرتبط بالعبادة سواء، أمام الخالق (عزوجل)، وفي تصور هذا الدين.

---

(٩٠) من كلام للأستاذ عمر عبيد حسنة في مقدمته لكتاب (مقومات الشخصية المسلمة ص ٢٧ كتاب عدد ٢٩ رئاسة المحاكم الشرعية بقطر .

(٩١) آية ١٠٩ من سورة الشعراء .

(٩٢) آية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٩٣) جزء من الآية الكريمة رقم ١٤٨ من سورة البقرة وتتمتها : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

(٩٤) معركة الإسلام والرأسمالية ص :٧٠ ، ١٠٥ ، سيد قطب ، دار الشروق ــ الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٠م ــ القاهرة .

فالشخصية تتبلور وتتضح معالمها ، كلما ازداد تمسكها وارتباطها بالعقيدة التي تعتنقها، وكلما ازداد هذا التمسك والتطبيق لنظام هذه العقيدة، ازداد الشخص اقترابا من المثل الأعلى الذي تحتفي به هذه العقيدة .. من ثم، تتبلور شخصية المسلم كلما ازداد تمسكًا بتعاليم الدين الإسلامي، والتزم بأنظمته التشريعية سواء العقدية، أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، وكلما ازداد تمسكه بهذه التشريعات الدينية، زهت أمامنا شخصيته، وتحددت ملامحها المتوائمة مع علة الخلق المتوافقة مع السنن الكونية والفطرة النقية، التي تصل بالشخصية إلى حد المثل الأعلى في العقيدة الإسلامية،" فالتربية الحقيقية (الإسلامية) هي التي تكون قادرة على تشكيل الإرادات، واكتشاف الطاقات، والتعرف على القابليات والميول ، والتزويد بالمهارات التي تجعل الإنسان قادرًا على التعامل مع الواقع ، والنهوض به إلى مستويات المثل الأعلى، والأهداف الممكنة" . (٩٥)

ومن ثم ، فلن تقوم للشخصية الإسلامية حياة فاعلة، وإيجابية ، إلا بردها إلى أحضان العقيدة الإسلامية، ومنهجها السامي، في تربية الوعي، والعقل ، الحضاريين، وإدراكها بقيمة وجودها في الحياة وصلابتها في أداء دورها الحقيقي في حركة المجتمع، وبنائه على أسس وتنظيمات قادرة على تغيير هذا الوجه المتهالك الذي خلقه هذا التآمر عليها ... فلابد للمسلم ــ إذاً ــ من تربية تجعله " إنسانا إيجابيا ، يعيش في حركة فكرية ، ونفسية وجسدية ، بناءة ، بعيداً عن السلوك التخريبي ... رافضا التحجر والجمود ... لا يرضى بالسلوك الانسحابي الذي يتهرب من نشاطات الحياة ، ويبتعد من مواجهتها ... تربية تؤهل الإنسان للعطاء ، وتنمى فيه القدرة على الإبداع ، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة ،... تربية تعد الإنسان إعداداً ناضجًا ؛ لممارسة الحياة بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام ؛ لأن الحياة في نظره ، عمل ، وبناء ، وعطاء ، وتنافس في الخيرات ... تربية تجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة ، لا يطغى على موقفها الانفعال ، ولا يسيطر عليها التفكير

(٩٥) مقومات الشخصية المسلمة مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة ص :١٢ .

المادي، ولا الانحراف الفكري المتأتي من سيولة العقل وامتداد (اللامعقول[٩٦])!" . تربية تبنى الإنسان على أساس وحدة فكرية وسلوكية وعاطفية، متماسكة على أساس من التنسيق ، والتوافق الفكري والعاطفي، والسلوكي الملتزم ، الذي لا يعرف التناقض ، ولا الشذوذ ، فتجعله يشعر دائماً أنه مسئول عن الإصلاح ، وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئوليته نحو هذا الإصلاح ، ويقود نحو شواطئ الحب والخير والعدل والحرية ومرافئ السلام ... "[٩٧] .

كل هذه المعطيات لن تؤتى ثمارها إلا بإيمان الشخصية الإسلامية ، ويقينها بجدواها الدءوب على التفكير في تميزها بها ، دون غيرها من الشخصيات التي حرمت هذا العطاء ، أو النعمة ، أو المنّة الربانية : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٩٨].

فالإسلام هو القوة الأعظم التي تمنح الإنسان فاعلية الوجود ، وقدرة الحركة داخل بناء المجتمع ، بفضل ما يمنحه هذا الدين للإنسان من قيم نفسية ، وثقافية، حضارية ، وإنسانية لصون كرامته وتحمله على الإباء ، والعزة ، والتميز بالرحمة والرفق ، فهو الذي رد العباد ، إلى عبادة رب العباد ، بعد أن كان العباد يعبدون العباد !!..

والنفس البشرية ــ كما خلقها الله تعالى ــ تزدحم بالمتقابلات من الغرائز والسلوكيات ... فمن عجائب التكوين البشري ــ كما يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه " منهج التربية الإسلامية"[٩٩] : "وجود تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية والمتجاورة في النفس البشرية، في الوقت ذاته، يختلف كل منها في الاتجاه: الخوف والرجاء ، الحب والكره، الاتجاه إلى الواقع، والاتجاه نحو الخيال، الفردية، والجماعية ، والسلبية، والإيجابية ... الخ، كلها خطوط متوازية ومتقابلة. إلا أنها باختلافها ذلك، وتقابلها، تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري

---

(٩٦) كتبت هكذا ،ولعل صحتها : (غير المعقول) .
(٩٧) في الغزو الفكري : ص: ١٥٤ ، ١٥٥ د / أحمد عبد الرحيم السايح ــ بتصرف ــ كتاب الأمة عدد (٣٨) .
(٩٨) سورة الحجرات آية :١٧ .
(٩٩) ص: ١٢٦/١ بتصرف . دار الشروق ــ الثالثة عشرة ــ ١٩٩٢م ــ القاهرة ..

بالحياة ، كأنما هي أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله ، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط ، وفي الوقت ذاته توسع أفقه ، وتعدد جوانبه ، وتفسح مجال حياته ، فلا ينحصر في نطاق واحد ، ولا مستوى واحد ، وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد ، في كل ما تعرف من مخلوقات الله ، يرجع في نهايته إلى النشأة العجيبة المعجزة ، قبضة الطين ، ونفخة الروح ... قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١٠٠).

فالإنسان على الرغم من أنه فرد في كيانه ، إلا أنه يهفو بدافع من ذاته نحو الجماعة، فتتوازى في نفسه الحقيقتان ، فلا يكون فردًا مكينا ، تترك له حرية التصرف حتى يصل إلى حد إيذاء نفسه ومجتمعه ، بدافع الحرية الشخصية الممنوحة له ، ولا يذوب في مجتمعه إلى حد تتلاشى فيه شخصيته تمامًا في خضم المجتمع ... فالإسلام عقيدة وسطية ، جمعت بين الخطين المتقابلين في النفس الإنسانية لتمنحها سعة وشمولا ، يؤهلها لحمل الأمانة والخلافة في الأرض ... وتعمل ــ من ثم ــ " على إنشاء روابط متعددة بين الإنسان والكون"(١٠١) ، فينشأ التوازن في كيان النفس الإنسانية القويمة .

إذن ، تصبح الفردية وهي الاعتداد بالنفس واستقلالية الذات ، والجماعية التي تعني الميل إلى حياة الجماعة ومعايشتها تصبحان من الغرائز ذات الخطر في تكوين النفس البشرية فإذا ما أُحْسِنَ توجيهها ، ووضعت في مساراتها القويمة ، كان لها دورها الإيجابي ، والفعال ، في بناء كيان النفس البشرية ، ومن ثم المجتمع . أما إذا انحرفت عن هذا المسار الذي أراده الله لها ، أورثت النفس القلق والاضطراب والتشتت المدمر، مما يوردها موارد الهلكة أو البوار في الحياة .... (فكيان المجتمع كله قائم على محاولة التوفيق بين هذين الخطين ، كل منهما حقيقة ، وكل منهما أصيل، والتناقض يحدث في باطن النفس ، كما يحدث الاضطراب في واقع الحياة حين تزيد النسبة المقررة لكل واحد ، فينحرف عن

---

(١٠٠) سورة ص آيتان :٧١ ، ٧٢ .

(١٠١) دراسات في النفس الإنسانية : ص: ١٤٥ . محمد قطب ــ دار الشروق ــ ثالثة ــ مصر.

مساره، ويعتدي على مسار الآخر، ويشده إليه ... أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح، فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق)[١٠٢].

بهذا المفهوم الواقعي للنفس الإنسانية تضحى نوعية خالصة في آدميتها الصادقة، الممتزجة من قبضة الطين، ونفخة الروح، خالصة في وجودها لله (عزوجل): ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[١٠٣] فينشأ الإنسان على طاعة الله وعبادته ، والإيمان بعبوديته لله (عزوجل) في كل شئون الحياة ، فإنه " ليس من قوة على وجه الأرض تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة شرع الله، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة فيه[١٠٤]".

يكاد يكون العبد المُمَتَّعُ بالحب الإلهي، ربانيا خالصا، ومن خلال هذا الوصل بالله تمتد أسباب الاتصال بين هذا الإنسان وأخيه الإنسان، بين هذا الإنسان والمجتمع بين الإنسان والكون .. ومن هنا ، يصبح المسلم مفطورا بفطرة الله ، ومصطبغا بصبغته ، يستلهم كل شؤونه وتوجيهاته في الحياة ، عقدية وفكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية ، من هذه الفطرة أو الصبغة الإلهية :﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾[١٠٥]؛ تنطلق منها عاداته وتقاليده، ممارساته وسلوكياته، مشاعره وسائر آماله وأهدافه في الحياة، من خلال علاقاته الاجتماعية والإنسانية.

بهذا المفهوم أو الرؤية الإبداعية (الفن والفكر)، يحاول الرافعي أن يتماس مع شخصية النبي (ﷺ)، ويوظف الطاقات الفنية والفكرية لما ندعوه "الأدب الإسلامي" إلى جانب ما تختص أو تتميز به الشخصية النبوية، ففرادتها وخصوصيتها التي أناطها الله بها، تستلزم تعاملا خاصا لا يخرج بها عن جلالها ووقارها وتفردها الإنساني، التي امتزجت فيها وعبرها كل القيم والخصائص والسمات التي أنتجها الإسلام، بوصفه دينا ربانيا وحضاريا وإنسانيا، إلى جانب

---

(١٠٢) منهج التربية الإسلامية ١٦٣/١ محمد قطب ــ سابق .
(١٠٣) سورة الذاريات آية : ٥٦ .
(١٠٤) حاجة الإنسان إلى ظهور الإسلام : ص :٧٣ د / أحمد السايح ــ الدار المصرية اللبنانية ــ أولى ــ ١٩٩١م ــ القاهرة .
(١٠٥) سورة البقرة آية: ١٣٨ .

الخصائص الروحية التي اختص الله بها النبي الكريم (ﷺ) ؛ الوحي . وتلك كانت خصائص الرؤية أو المذهب الفني الذي ينطلق منه (الرافعي) في معالجاته الفنية والفكرية ، لشخصية النبي محمد (ﷺ) ، وهو ينتج مقالاته الإبداعية التي تتماس في أدائها الفني مع التقنيات الفنية التي يوظفها مبدعو القصة أو الرواية ، في تشكيل الشخصية ذات الحضور الفاعل والحيوي في تشكيل الفضاء الفني للقصة .

إذ " الغرض الأول للأدب .. أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة ، وأن يلقي الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها ، ويرد القليل من الحياة كثيرًا وافيًا بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ثابتًا قارًّا بما يخلد من وصفه ، ويجعل المؤلم منها لذًّا خفيفًا بما يبث فيه من العاطفة ، والمملول ممتعًا حلوًا بما يكشف فيه من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كله على إيتاء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة أيضًا . فإن هذه النفس طُلَعَةٌ متقلبة ، لا تبتغي مجهولًا صرفًا ولا معلومًا صرفًا ، كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ، ولا خفي مطلق؛ وإنما تبتغي حالة ملائمة بين هذين، يثور فيها قلق أو يسكن منها قلق ([١٠٦])" !!.

" وأشواق النفس هي مادة الأدب ؛ فليس يكون أدبًا إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلًا بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يومئ إليه من قريب ، أوغيَّر للنفس هذه الحياة تغييرًا يجيء طباقًا لغرضها وأشواقها؛ فإنه كما يرحل الإنسان من جو إلى جو غيره ، ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلى حياة أخرى فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان؛ حياة كملت فيها أشواق النفس؛ لأن فيها اللَّذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف...([١٠٧])".

---

(١٠٦) وحي القلم ص ٣/ ١٧١ .
(١٠٧) السابق ص : ٣/ ١٧١ .

" وقد صح عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة، فتحس وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى إلا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى "منطقة حياد" خارجة وراء الزمان والمكان؛ فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت إلى الجنة واستروحت الخلد([١٠٨])".

" وهذه .. دليل على أن النفس الإنسانية تصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنيهة بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا ، وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه؛ وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير- هو معنى الأدب وأسلوبه [١٠٩]."

"ثم إن الاتساق والخير والحق والجمال – وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها – أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجًا من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال في التعبير الذي يتأدى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ، والخير في الغرض الذي يساق له، ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيار أدق منها إن ذهبت تعتبره بالنظر والرأي . ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافًا إليها الفن، ويجيء التعبير مزيدًا فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودَقُّها الموسيقي؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان على الفاني، والذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معًا([١١٠]) " .

---

(١٠٨) السابق ص : ٣/ ١٧١ .
(١٠٩) السابق ص : ٣/ ١٧٢ .
(١١٠) وحي القلم ٣: / ١٧٠ وما بعدها بتصرف .

والأديب العبقري الذي يستطيع أن يوظف أدواته في تشكيل التجربة الشعرية، ومنها بناء أو تشكيل الفضاء الإبداعي للشخصية التي هي جزء من تشكيل الفضاء الفني للمنتج الأدبي فهو في نظره ورؤيته (١١١) : " ولو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط ، ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها. إذ كانت فيه مع خاصة الإنسان خاصية الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضًا منها؛ وهذا ، وذاك ، وذلك هو الشمول الذي لا حد له ، والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء، أولٌ فيه لشيء ".

" وهو ــ أي الأديب ــ إنسان يدله الجمال على نفسه ليدل غيره عليه ، وبذلك زِيد على معناه معنى ، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره ، فأساس عمله دائمًا أن يزيد على كل فكرة صورة لها ، ويزيد على كل صورة فكرة فيها ، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة ، فيوجد الحياة فيها. ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة . فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ، ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني ؛ وبالأدباء تنمو معاني الحياة ، كأنما أوجدتهم الحكمة ؛ لتنقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه !!(١١٢) ".

" ... وعِلْمُ الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار ... وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيبًا تامًّا قائمًا بحقائقه وأوصافه، فالأديب العبقري لا يراها إلا أجزاء، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها، وكأنما أمَرَّها في (معمله) ، أو كأن الله –سبحانه– دعاه ليرى فيها رأيه ... فالأديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائع الحياة في

---

(١١١) السابق : ٣/ ١٧٢ وما بعدها بتصرف .
(١١٢) السابق ص : ٣/ ٧٣ .

حذو واحد من النزاع والتناقض، وإذا هي دائبة في محق الشخصية الإنسانية، تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فإذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفس العالية إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة ([١١٣]) ".

.... وإذا أردت الأدب الذي ينشئ الأمة إنشاء ساميًا، ويدفعها إلى المعالي دفعًا، ويردها عن سفاسف الحياة، ويوجهها بدقة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرز المحكم، ويملأ سرائرها يقينًا ونفوسها حزمًا وأبصارها نظرًا وعقولها حكمة ، وينفذ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية .. ([١١٤]) " .

ومن ثم ، يصبح الأديب الذي ينعته الرافعي بـــ " العبقري ، هو أبدًا وراء ما لا ينتهي من جمال ، أوله في نفسه وآخره في الجمال الأقدس ، الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية ؛ فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل ، ممزقًا حياته في سبحات النور تمزيقًا يجتمع منه أدبه ؛ وما أدبه إلا صورة حياته ؛ وهو كلما أبدع شيئا طلب الذي هو أبدع منه ؛ فلا يزال متألمًا إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ، ومتألمًا إن لم يعمل ؛ لأن تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا في عمل ، وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرد العشق في حامله ؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه ؛ فكل ما تجده في نفس العاشق المتدله مما يترامى به إلى جنونه وهلاكه ، تجد شبهًا منه في نفس العبقري ؛ فكلاهما قانونه من طبيعة وحدها؛ إذ قد اتخذت حياته شكلها الفني من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقة أحد، بل هو في طريقة نفسه ، وكلاهما مسترسل أبدًا إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمد منه، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنى، بل رسولًا من الجمال أرسل إليه وحده ، ولا يزال يشعر في كل وقت أن له رسائل ورسلًا هو بعد في انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه إلى الظن أنه

(١١٣) وحي القلم ص : ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .
(١١٤) وحي القلم ص : ٣/ ٧٧ .

ربح من الكون ربحًا لم يكن له من قبل ، وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع، وبين حريتها التي في خياله وأمله ، كأن عليه في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيدًا من قيود الاجتماع أو العيش ؛ وكلاهما متصل بقوة غيبية وراء ما يرى وما يحس تجعل نظرته في الأشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين ، فإذا مد عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابه ، ووحي وترجمته ، ومرور من يقظة إلى حلم، وانتقال من حقيقة إلى خيال ! ([١١٥]) ".

القسم الثاني :

الدراسة الفنية

شخصية النبي محمد (ﷺ)
في مقالات من وحي القلم
تحليل ونقد

وتأتي في ثلاث لوحات :

اللوحة الأولى :

الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام .

---

(١١٥) وحي القلم ص ٣/ ١٨٠ ، ١٨١.

اللوحة الثانية :
حقيقـــــة المسلم .

اللوحة الثالثة: :
الإنســـــــانية العليا .

يحاول الرافعي أن يفيد من المنهج القرآني في عــرض نماذجــه وأنماطــه القصصية خاصة في عرض قصص الأنبياء والمرسلين "عليهم أذكى الصلاة وأتم السلام"، إذ يلجأ القرآن الكريم في بنائه للشخصيات بما يمكن تسميته باللوحــات القصصية الكاشفة عن الجوانب النفسية والروحية وحتى الجسدية لما يعرض له في بناء تلك الشخصيات . والرافعي ابن هــذه الثقافــة وربيــب هــذه الطاقــات الوجدانية التي أترع بها قصص القرآن الكريم، ومن ثم نجده يعرض جوانب مــن شخصيات منتقاة تمثل فيما بينها أوجه مختلفة لشخصية النبي (ﷺ)، وتمثل فيما بينها إضاءات نفسية وروحية ووجدانية لشخصية النبي محمد (ﷺ)، وهو يمارس حضوره الإنساني الفاعل في كتاباته الإبداعية التي تتماس في كثير من مواطنهــا مع القصص الأدبي في ماهيته، ووسائط التشكيل الفني التي عرفها كُتَّاب هذا الفن الإبداعي الممتلئ بطاقات فنية باستطاعتها ــ لو صح التعبير ــ أن تكتنــز عبــر متنها الإبداعي الكثير من الحمولات الفكرية، والرؤى أو التصورات، أو الفلسفات الفكرية (الإيديولوجيات)، التي تنهض بأدبه؛ ليتبوأ مكانا فريدا في خارطة الإبداع.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة)(١١٦) : " لقد قدَّم الرافعي العديد من مقالاته ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر الحديث " بانوراما إسلامية " بحيــث ينفــذ بالإنسان المعاصر إلى زوايا إسلامية عديدة لم تكن تخطر على باله وهو يتمثــل

(١١٦) مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا . ص : ١١٠ /١١١ . سابق .

الفكرة الإسلامية ، كما تناول ــ في الوقت نفسه ــ قضايا يعرفها بعض المثقفين المسلمين عن طريق التعميم دون التفصيل ، والجزئية دون الكلية . ويعالج الرافعي القضايا التي يتطرق إليها بعد أن يعمد إلى اختيارها علاجا ينحو فيه نحو الإقناع المنطقي ، معلقا بشفافية المؤمن وأسلوب الأديب ، مما يمكن أن يجعل هذه المقالات ومثيلاتها فيما يستقبل من فصول ، نوعا فريدا من الأدب الرفيع " .

يتناول الرافعي شخصية الرسول (ﷺ) في كتابه (وحي القلم) ، من خلال عدد من المقالات ، سنحاول التماس معها نقديا ، من خلال تحليل عملية التشكيل الفني لفضاءاته الإبداعية ، عبر فن المقال الذي تناول فيه جوانب ساطعة من حياة الرسول الأكرم (ﷺ) ، لكي يتوازى معها المسلم ، الذي يعرف قدر الرسول (ﷺ) في دينه وعقيدته ، وحياته ، ووجوده ، ويؤمن برسالته . ومن ثم ، يستطيع أن يدنو بنفسه نحو عالم الكمال ؛ شخصية الرسول(ﷺ). ومن هنا ، يتحقق الهدف المروم من إنشائه لهذه المقالات ، التي سنكشف عبر عملية التحليل نقطة الالتقاء بين الرافعي كاتب المقال ، والرافعي الطامح لكتابة القصة ، بمفهوم ربما يختلف ولا يتقاطع مع كُتَّاب القصة ، و نقادها ، بالشكل والطبيعة التي تناقلوها عن الآداب الأوربية ، التي وصلتنا في مقتبل عصر النهضة ، عبر الترجمة والبعثات ، التي عايشت نهضة الفنون في أوروبا سيما في فرنسا ، عاصمة النور!!، التي كانت تشهد رواجا وازدهار فنيا ، اجتذب كثير من مواهبنا الإبداعية ، ونحا بالآخرين منهم نحوا يتفق ورؤاهم الفكرية والفنية ، في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الفنون في بلادنا .

اللوحة الأولى
الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام
النبوة .. الأنموذج (١١٧)

يهيئ الرافعي المسرح (البيئة) لظهور شخصية النبي محمد (ﷺ) في هذا العمل الأدبي ، وعبر الفضاء الإبداعي، الذي يحدب الرافعي على تشكيله أو بنائه في الجو الإيماني العام ، العبق بالعطر النبوي العتيق:

" كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها (١١٨) ".

" والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي، في عملها للمادة تحول به وتغير، والنبي يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع في عمله تترقى فيه وتسمو(١١٩) ".

" ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون نور من الكلام ١٢٠".

---

(١١٧) هذا العنوان الفرعي من عندي .

(١١٨) وحي القلم ص : ج ٢ / ٣ مصطفى صادق الرافعي ــ مكتبة الإيمان ــ دت ــ المنصورة .

(١١٩) السابق ص : ٢/ ٣ .

(١٢٠) السابق ص : ٢/ ٣ .

" والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء .([١٢١]) "

بهذه الدفقة الجمالية ــ إذا صح التعبير ــ يلج بنا الرافعي عالم فريد في بناء الفضاء الإنساني للنموذج ، الذي يريد أن يقدمه في إطار مضمخ بعبير النور، والفيوضات الروحية ، التي تتشكل عبر تقنية الصورة الوصفية ، التي تطمح نحو التعبير عن " اتساع الرؤية ، واستيعابها لكافة الأحداث والوقائع ، وعلاقاتها المتعددة بالشخصيات ، كما منحه التوهج والشفافية ، في عملية النسج والتركيب البنائي للقصة[١٢٢]، فتشد من انتباه المتلقي ، وتستغرق وجدانه وتحفزه على المواصلة، وتقنعه بالمشاركة ــ النفسية والعاطفية .([١٢٣]) " .. عبر أدوات المبدع (اللغوية / البلاغية/ الفنية) البانية للصورة ، المتفاعلة ، والمشتبكة مع الفضاء الإبداعي لبناء الشخصية ، فتتخلل " نسيجه ألوانٌ من الخيال ، وإن كان الخيال هو الذي يشكل ، أو يصنع الألوان الجاذبة ، في النسيج اللغوي ، للمشهد الوصفي " فالقاص لا يملك إلا وسيلة واحدة يستطيع بها أن يبني (معمار/ فضاء) عمله الفني. وهذه الوسيلة هي : اللغة .. الكلمات ، والكلمات شبيهة باللون عند الرسام ، والصوت عند الموسيقي ... ومن ثم ، القاص يبدأ محاولاً بكلماته أن يعبر عن طيوف الحياة الزاهية وتفتحها ، أو يصوغ في مقاطع لغوية اللحظات المضيئة والمعتمة من الذاكرة والشعور" [١٢٤] .. وهكذا يجد الفنان المتمكن نفسه يعمل في الصياغة الكلامية كشاعر ... فيتحول الكاتب إلى شاعر رمزي ــ إذا جاز التعبير ــ فيحاول أن " يخلق صورة تخييلية ، لعقل يتدفق بالخواطر ، والصور والانطباعات ، فاستغاث بكل ما في اللغة من إمكانات ، مؤمنا أن مهمة

---

(١٢١) السابق ص : ٢/ ٣ .

(١٢٢) الصورة والبناء الفني مقال للأستاذ عبد اللطيف الطاهر الزكري مجلة الفيصل عدد ٢٢١ ذو القعدة ١٤١٥هـ .السعودية .

(١٢٣) النقد الأدبي الحديث : مقاربات نقدية في المفهوم وآليات الإبداع . ص :١٧٨ د . كمال سعد محمد ــ طبعة محدودة ــ ٢٠١٥ م . أسيوط .

(124) القصة والفنون ص : ١٠٢ د. السعيد الورقي ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ مكتبة الشباب ــ عدد (٥٧)ــ يونيه ١٩٩٧ــ مصر .

القاص هي أن يجعل الكلمة تطابق الفكر كما يتجانس مع لغة الذهن ، ولو اقتضى ذلك أن يخلق لغة جديدة ". (١٢٥)

فالوصف والصورة الوصفية ــ كما أحب أن أسميها (١٢٦) ــ وإن كان يمثل كل منهما نمطًا أسلوبيًا ، أو وسيلة من وسائل أو وسائط المعمار الروائي . ولكل منهما مفهومه الخاص وتواجده الفريد في عالم التنظير النقدي والفني . إلا أننا في القصة لا يمكننا فصل أحدهما عن الآخر إلا قسرًا . وهذا ما سيتضح في النصوص التي نتناولها وتسهم في تشكيل الصورة وبدورها في بناء أو تشكيل الشخصية .

" .... فليس النبي (ﷺ) إنسانا من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ؛ ولكنه إنسان نجمي ، يقرأ بمثل "التلسكوب" . في الدقة معه العلم ، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها (١٢٧) " .

الرافعي الأديب المسلم يرى أن أبرز صفات النبي أي نبي (ﷺ) هي النبوة بوصفها قيمة بانية ، وحاضرة في شخص النبي (ﷺ) لها مميزاتها و منطلقاتها وخصائصها التي ربما تتجاوز فيها النمط الإنساني العادي ، الذي نراه أو نقابله أو نتشارك معه الحياة . فالنبوة هي حجر الزاوية في بناء شخصية النبي(ﷺ) عند الرافعي ، وهي القاعدة التي ستنطلق منها الرؤية في بناء الشخصية في بعديها الحضاري والإنساني المتكئ على قاعدة الدين والعقيدة ، بثرائهما وفاعليتهما في البناء ، أو التشكيل الجمالي لشخصية النبي (ﷺ) .

---

(125) القصة السيكولوجية ص : ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، مواطن متفرقة ، ليون إيدل ، ت : محمود السمرة ــ المكتبة الأهلية ــ بيروت .

(١٢٦) الوصف ، وصفان : تقليدي وهو : الذي يعنى بوصف المشاهد التي تقع عليها العين . وذاتي وهو : الوصف المفعم بالمشاعر والأحاسيس والعواطف . وينعته بعض النقاد بالصورة . إلا أنني أرى أن الصورة الوصفية بوصفها تقنية إبداعية تعنى بتقديم الجمالية الإبداعية ؛ لأنها تعبر عن اتساع رؤية القاص واستيعابها لكافة الأحداث والوقائع ، وعلاقتها بالشخصيات، في غلالة من التوهج والشفافية في عملية النسج والتركيب البنائي للقصة.فتشد من انتباه المتلقي وتستغرق عليه وجدانه وتقنعه بالمشاركة النفسية والعاطفية في تشكيل التجربة بين المبدع والمتلقي . راجع كتابنا : اللغة وتقنيات البناء القصصي ص : ٦٦، ٧١.

(١٢٧) وحي القلم : ٣/٢

" والحياة تُنشئ علم التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء – صلوات الله عليهم– تجعل التاريخ هو يُنشئ علم الحياة ، فإنما النبي (ﷺ) إشراق إلهي على الإنسانية ، يقومها في فلكها الأخلاقي ، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه ، صورة لقانون الجاذبية في الكواكب ([١٢٨]) ".

" ويجيء النبي (ﷺ) فتجيء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغه الفن البياني؛ لتكون أقوى أثرًا، وأيسر فهمًا ، وأبدع تمثيلًا ، وليس عليها خلاف من الحس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنسانًا واحدًا فَنَّ الناس جميعًا، كما تكون البلاغة فَنَّ لغة بأكملها، وهو الشخص المفسر إذا تعسفت الناس الحياة ، لا يدرون أين يؤمُّونَ منها ؟، ولا كيف يهتدون فيها ؟ ، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه ، وتتهالك فيه من أطماع الدنيا ، ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي ، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئي، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية ...([١٢٩]) "

" .. وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون في نفس النبي (ﷺ) أبلغ نفوس قومه ، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي (ﷺ) تنادي الناس : أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية "([١٣٠]) .

فالرافعي برؤية القاص يحاول أن يتماس مع الجو العام المضمخ بعبير الإيمان، مركزا على أنصع وألمع نقطة فيه ؛ بؤرة النور في شخصية الإنسان محمد (ﷺ) "النبوة" وما أعظمها من بؤرة مضيئة !!. ثم ما يلبث أن يكشف بأسلوب التقابل أو التطابق بين الأنموذج النبوي، والأنموذج الإنساني (البشري)؛ ليطرح خلاله وعبره القياس (السيمترية) الذي ينبغي أن يكون عليه نمط / إنسان هذا الدينبأن تقاس كل تصرفاته وحركته في الحياة هلى هذا الأنموذج النبوي؛ لأن

(١٢٨) وحي القلم ص : ٣/٢ .
(١٢٩) وحي القلم ص :٢ /٤ .
(١٣٠) وحي القلم : ج ٢ / ٤ .

الرسول (ﷺ) هو القدوة والمثل الأنقى والأكمل في حياتنا / واقعنا الإسلامي؛ هو الأنموذج الذي يطرحه الدين ؛ ليطمح كل منا (التابعين) في الحياة في دنياه على قياسه أو يدنو من هذا القياس ما أمكنه ذلك لنكون على شاكلته في الأنموذج الأكمل أو نلتقي معه عند درجة ما من هذا الالتقاء في طرحه الحضاري والإنساني ليكون (الخليفة) في الأرض بمفهومها الحضاري الذي يعني الشمول والحيوية والبناء .

من ثم ، نجد الرافعي وهو يطرح هذه الرؤية لهذا الأنموذج الإنساني الرفيع للنبي(ﷺ) فهو يطرح بإشارة أو بدرجة موازية صورة للإنسان المسلم الذي يطمح نحو الكمال حتى يدنو أو يقترب من الأنموذج الذي يطرحه الرافعي للنبي الإنسان، فيوظف تقنياته الفنية التي باستطاعتها تشكيل هوية شخصيته عبر رؤية فنية قادرة على منح المتلقي فرصة المشاركة الوجدانية للمؤلف ، فينسجان معا تشكيلا جماليا قادرا على منحنا فرصة المتعة والانبهار عبر مكانه الذي يتخيره ليطل علينا منه وهو يبدع ويصنع شخصياته في المعمار القصصي .

يحاول المبدع أن يوظف وسائط (تقنيات) القص وهو يعبر عن هذه اللمحة النورانية في شخصية النبي (ﷺ)، أي نبي !! (ﷺ) فيوظف ما يمكن تسميته بـ: <u>الرؤية من خلف :</u> هذه النافذة التي يطل منها الراوي أو القاص تجعله الصوت العالم بأحوال أبطاله والمستكنه لتفاصيلها ، بل والقادر على استنطاق خفايا النفس، وكشف تفاعلها ، أو يبرر مواقفها ؛ فهو ذات مهيمنة ، توجه الأحداث نحو القناعة التي يريد أن يحضرها في ذهن المتلقي ، ويتوسل لذلك بـ(ضمير الغائب) في عملية الحكي ، لما لهذا الضمير من رحابة حكائية ، قادرة على الإمساك بكل العناصر، التي تتحرك داخل الإطار القصصي، فهو صوت سلطوي، يتحسس القارئ اليقظ وجوده في كل وحدة سردية أو حوارية، لكنه صوت ذكي، يجنب نفسه نفور القارئ ، فيتحايل على هذا الأخير بكل أفانين الكتابة، والإيحاء حتى يخضعه في النهاية للموقف المروم!، بلغة قادرة ، ووعي وذكاء بوظائفها المختلفة، حتى يستلب لب القارئ، أو المتلقي ويحمله على متابعته. ويستثير عواطفه، ويسيطر على كل حواسه، فيسير به نحو الاتجاه الذي يريد، ويقدم الشخصية، ويبعث فيها الروح حسبما يريد .

إن هذا الضمير (الغائب) يُستدعى كثيرًا عند توصيف الصور البيئية ، التي تحدد ملامح المكان التي تجري فيه الأحداث ، من شواهد ، أو مشاهدات حياتية ، أو ملامح مفردات الكون التي ترسم الصور الحياتية التي تشارك في تشكيل ملامح الحدث أو الشخصية ، أو حتى الزمان التي جرت فيه هذه الأحداث، "فإن غاية الرواية بوصفها تعبيرًا فنيًا ، هي تجسيد الحياة الإنسانية على نحو أعمق وأخصب"(١٣١).

يقدم الأدباء على اختلاف توجهاتهم الإبداعية نماذج متعددة في قصصهم ، يوظفون فيها خلال إبداعهم ضمير الغائب ، " لما لهذا الضمير من رحابة حكائية ــ كما قلنا ــ فلذا نجده من أكثر الضمائر استعمالًا لدي المبدعين ، كما أنه في ــ الوقت نفسه ــ أكثر استقبالاً لدى المتلقين ، وأدناها إلى الفهم لدى القراء ... وذلك لعدة أسباب نذكر منها (١٣٢) :

١) ــ أنه ــ أي ضمير الغائب ــ وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءها السارد، فيمرر ما يشاء من أفكار ، وأيديولوجيات ، وتعليمات وتوجيهات ، وآراء ، دون أن يبدو تدخله صارخاً أو مباشرًا ، إن السارد يغتدي أجنبيًا عن العمل السردي ، وكأنه مجرد راوٍ له ، بفضل هذا الـ"هو" العجيب .

٢) ــ يجنب اصطناع " ضمير الغائب " الكاتب السقوط في فخ (الأنا) الذي قد يجر إلى سوء فهم العمل السردي ، وأنه ألصق بالسيرة الذاتية منه بالرواية الخالصة ، وذلك على الرغم من أن الكاتب المحترف يعنت نفسه في محاولة فصل (الأنا) السردي عن (الأنا) الكاتب ، ولكن ذلك لا يكون إلا بمقدار ..

٣) ــ يفصل اصطناع " ضمير الغائب " زمن الحكاية ، عن زمن الحكي من الوجه الظاهرة على الأقل ، مثل ما يحدث في إبداع الروايات التاريخية ، وذلك حيث أن الـ" هو " في اللغة العربية يرتبط بالفعل السردي العربي " كان " الذي يحيل إلى زمن سابق على زمن الكتابة ... فإن هذا الزمن يظل في ظاهره ، وكأنه

---

(١٣١) راجع قراءة الرواية ص : ٢١٦ . دكتور محمود الربيعي ــ دار المعارف ـــ ثانية ــ ١٩٧٤ م ــ القاهرة .

(١٣٢) في نظرية الرواية ص : ١٧٦ ، عبد الملك مرتاض وما بعدها بتصرف ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (عالم المعرفة / عدد ٢٤٠) ــ الكويت .

مفصول عن الكاتب ، سابقُ عليه ، مع أنه مجرد خدعة سردية ، وتقنية روائية للتعامل مع الزمن الذي هو زمن الكاتب وحده ... وفي هذه الخدعة السردية ما فيها من حمل المتلقي على التصديق ، بحدوث ما يجري ، وأنه أدخل في التاريخ والواقع من حيث هو مجرد نسيج لغوي ، وبمقدار ما يبتعد عن الواقع والتاريخ ، يقترب من الأسطورة ، وعطاء الخيال ..

٤) ــ أن اصطناع " ضمير الغائب " في السرد يحمي السارد من " إثم الكذب " يجعله مجرد حاك يحكي ، لا مؤلف يؤلف ، أو مبدع يبدع ، قد يتولد عن هذا الاعتبار انفصال النص عن ناصِّه ، وذلك بحكم أنه مجرد وسيط أدبي ينقل للقارئ ما سمعه ، أو علمه من غيره ، فهو ببعض هذا السلوك ، ينتقل من وضع السارد الكاتب إلى وضع السارد الشفوي (الراوي) .

٥) ــ أن استعمال "ضمير الغائب " يتيح للكاتب الروائي أن يعرف عن شخصياته ، وأحداث عمله السردي كل شيء ، وذلك على أساس أنه قد تلقى هذا السرد قبل إفراغه على (الورق) ، فهو هنا يزج بالأحداث وشخصياتها نحو الأمام ؛ فيكون وضعه السردي قائمًا على اتخاذ موقع خلف الأحداث التي يسردها، أو قل : الأحداث التي يزج بها تلقاء الأمام ، بما هو أشد إلمامًا ، وأكثر إطلاعًا عليها ؛ فهو بها إذن خبير ، وبتفاصيلها عليم ؛ وذلك بما هو مجرد أدوات ورقية، أو سمات صوتية طائرة في الفضاء، ولا حول لها ولا طول، تأتمر بأمره، ونزدجر لزجره ، وتندفع لدفعه .

هذه التقنية الفنية قادرة على منح العمل الإبداعي التوهج والشفافية في عملية النسج .. فتشد انتباه المتلقي ، وتستغرق وجدانه ، وتحفزه على المواصلة، وتقنعه بالمشاركة النفسية والعاطفية والوجدانية .

يتجاوز القاص الدخول إلى مسرح الأحداث ؛ يتجاوز العام إلى الخاص بعدما حاول في مقدمته أن يلج بنا عالم "النبوة" بكل طاقاته وفيوضاته الوجدانية الغضة، والإنسانية المترعة بالقيم الرفيعة، ويخطو بنا نحو الشخصية / البطل سيدنا محمد (ﷺ) في هذا العمل، فيدنو بنا خطوة منه هكذا :

"ومن ثم فنبي البشرية كلها (ﷺ) من بعث بالدين أعمالا مفصلة على النفس أدق تفصيل و أوفاه بمصلحتها ، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي

الثابت المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى ، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه ، لا يغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء (١٣٣) ".

بهذه الخطوة يضعنا على عتبات البطل النبي(ﷺ)،يلج بنا عالمه المترع بكل قيم النبوة الخالدة، الشخصية الممتلئة بطاقات الدين وحقيقة الإسلام، المتمثلة في ذاته(ﷺ).وهنا ينفذ الأديب"الرافعي"نحو الكمال النبوي من أرق وأدق معانيه!!، فكل ما سبق من معاني الهدى، وطاقات النور، وبؤر الإشراق الروحي والوجداني، من معاني النبوة وخصوصياتها، مكين في ذات النبي محمد (ﷺ) مع أنه من جنس هؤلاء البشر، ويحيا حياتهم، ويتصرف بمثل تصرفاتهم، ويمشي بينهم ، وفي الصورة والهيئة ربما لا يختلف عن كثير منهم: "كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء" كما وصفه القرآن الكريم، وأخبره أن يقدم نفسه (ﷺ) لقومه: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ...(١٣٤)".

أرأيت براعة وجمالا مهما بالغ في الوصف يستطيع أن يصل إلى براعة " الرافعي " في وصف النبي الأعظم محمد (ﷺ) ؟!! .. فاللغة بعنفوانها وامتلائها في هذا المقطع ــ ككل مقاطعه ــ تمنحنا هذه المتعة الروحية البارعة التي ليس بمقدور المتلقي أن يصفها ، وإن كان ينعم بجمالها ويتلذذ بمذاقها !! " فإن من الأشياء أشياء لا تحيط بها الصفة ولا تؤديها المعرفة !! " فالكلمات لدى الأديب ليست مجرد ألفاظ صوتية ذات دلالات صرفية ونحوية ومعجمية فحسب ــ وإن كان الأديب لا يغفل كل ذلك ــ وإنما هي تجسيم حي للوجود . فاللغة في العمل الأدبي وجود له كيان وجسم وروح ، هي كائن حي له خصائصه وفلسفته ، ذو نبض وحركة وحياة ، ويتحدد بهذا مفهوم الخلق الأدبي بأنه سيطرة الأديب على اللغة بما يضفيه عليها من ذاته وروحه ووجدانه(١٣٥)" .

---

(١٣٣) وحي القلم : ج ٢ /٤.
(١٣٤) جزء من الآية : ١١٠ من سورة الكهف .
(١٣٥) قضايا النقد الأدبي المعاصر ص : ٣١، ٤٢ د / محمد زكي العشماوي بتصرف ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٥ م ــ الإسكندرية .

" وكل ذلك تراه في نفس النبي محمد (ﷺ) ، فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة ، لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين ، وجعلت في نصاب واحد – ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه (ﷺ)، ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدُّرة في محارتها ، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه ، أو صفة كصفة الذهب في عرقه، وهي النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحى([١٣٦])".

ولعلنا في المقطعين السابقين نرى الرافعي يستحث طاقات اللغة وصور بيانها الذين يحدب على صيانتهما ، وحراستهما من تغول المتربصين بالتراث وطاقاته الجمالية ، وإمكاناته الإبداعية ، فيوظف التشبيه البلاغي بوصفه تقنية فنية أو إبداعية قادرة على تجسيد المدركات ، وإظهار ملامحها وإبراز تضاريسها اللغوية، القادرة على تشكيل الجمال في أبهى صوره وأزهى ملامحه ليقرب لنا تلك الصورة التي ربما لا ندركها على الصورة في فضائها النبوي.

" وتلك هي الشهادة له (ﷺ) بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير، فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها: صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذي يكون عند سبب جبلًا صلدًا يشمخ ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجري...([١٣٧]) "

" .. وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ همه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة ، وسيادة الطبيعة ، وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية([١٣٨]) .

---

(١٣٦) وحي القلم : ج ٢ / ٤ .
(١٣٧) السابق ص : ٢ / ٥ .
(١٣٨) السابق : ج ٢ / ٤ ، ٥ .

يحاول الأديب أن يوغل بنا في عالم الشخصية النبوية لسيدنا محمد (ﷺ) فيرسم ملامحه في مقاطع يحاول فيها الكشف عن سمات أو خصائص بنائية تتناسب وطبيعة شخصية النبي الخاتم (ﷺ) . فيسرد لنا عبر مقالاته بعضا من تلك السمات أو الملامح التي يعنى بمثل وصفها كُتَّاب الرواية أو المسرح ، والتي تشكل فيما بينها مقومات البناء الفني للشخصية الحية ، والحيوية في الفضاء الروائي ، وتمنحها هذه الاحترافية الصيرورة والحياة حتى ليمكنها أن تتجاوز صفحات الرواية إلى الواقع المعاش . والشخصية بوصفها نموذجًا بشريًا ، مُنتجًا من الواقع (الحياة)، تتفاعل بما مُنِحَتْهُ من معطيات حياتية (جسدية، ونفسية، وعقلية) مع هذا الواقع، بمختلف إطاراته (فكرية، وعقدية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية)، أو مستدعاة من التاريخ المترع بالنماذج المختلفة في توجهاتها، أو ما خلفته من تراث فعلي، حكائي يجعل منها عنصرًا، ذا أهمية بالغة في إبداع العمل الروائي، سيما إذا وعينا " أن الرواية هي فن الشخصية بالدرجة الأولى ، وأنها لا تحيا بغير هذه الشخصيات الحية النشطة " . (١٣٩) .

فالشخصية إذن ، تقوم في القصة ، مقام العضلة المحركة (القلب) بالنسبة لبقية الأعضاء في الجسم .. الشخصية في الرواية فاعل ،" يؤثر في الحدث ، تدور حوله بعض أجزاء من القصة ، وتتحدد ملامحه عن طريق وصف سلوكه ووظيفته الاجتماعية ، وخصائصه النفسية والجسمانية ، وذلك من خلال حديثه ، أو من خلال وصف الراوي له بصورة محددة " (١٤٠) .

بهذا التصور النقدي للشخصية في الأدب، يصبح هذا الأنموذج البشري أنموذجًا يحقق من ورائه المبدع تقديم الصورة متكاملة الأبعاد لشخصية إنسانية حية، تتمثل فيها مجموعة من الفضائل، أو النقائص، كانت متفرقة من قبل في عالم التجريد، أو في مختلف الأشخاص، وليس لهذا الأنموذج قيمة فنية، إلا حين يستطيع الكاتب أن يجعل منه "مثالاً ينبض بالحياة، من ثنايا التصوير الفني، حتى

(١٣٩) صورة المرأة في الرواية المعاصرة ــ ص : ٩٧ ــ د / طه وادي ــ مركز الشرق الأوسط ــ بدون ــ القاهرة .

(١٤٠) قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر ــ ص : ٧١ د / سمير حجازي ــ مكتبة مدبولي ــ ١٩٩٠م . القاهرة.

يظهر أكثر غنىً في نواحيه النفسية، وأجمل في التصوير، وأوضح في معالمه مما نرى في المجتمع، وهذا النموذج ــ في كل حالاته ــ أكثر إقناعًا ، وأعمق وأكمل مصيرًا، من نظائره في الطبيعة"(١٤١).

وحتى تكون الشخصية مقنعة في الإبداع الأدبي ، لابد أن تلتقي خلالها مجموعة من الفضائل أو النقائص، فهي ــ شأن طبيعة البشر؛ وإن كانت تختلف عنهم ــ فتخطئ، وتصيب، وتعلو وتهبط ، ترمز إلى قيم معينة : خيرًا كانت أو شرًّا، فهي في فكرها، وتصرفاتها، يحكمها تصور معين أو عقيدة ما، "فالكائن الحي، يقوم باستجابات معينة في ظل وجود دوافع أو توتر ، ومع وجود مثيرات أو دلائل ذات أنواع معينة عديدة"(١٤٢).

وإذا كانت الشخصية ــ كما عرفنا ــ مركز الأفكار، ومجال المعاني التي تدور حولها الأحداث، فلابد أن تستمد هذه الأفكار والرؤى المختلفة في اتجاهاتها، وعاداتها، وتقاليدها، وتفكيرها، وصفاتها، من الواقع الذي تحيا فيه، وإن كانت تختلف عنه، "فهي ذات ثراء دلالي، وغنية في جوانبها المختلفة؛ النفسية والاجتماعية والجسدية، وتمثل نماذج منفردة يضمها الواقع الإنساني ... حافلة بالعمل والحركة"(١٤٣)، دون الوقوع في دائرة المباشرة، والسذاجة التي تنتج من تهافت القاص وراء توافه الأمور، من الأفعال، والانشغال بالتصرفات الخالية من المعاني. ومن ثم، على الأديب القاص، أن يحذر السقوط والتهافت ، فلابد له عند إبداع الشخصية من "استحضارها في وجدانه؛ ينفعل بها، ويستمطر من التصورات الخيالية ما يهيئ الجو لإعادة تشكيلها من خلال رؤية خاصة ، يعبر عنها بالكلمة الصادقة، فيجيء تعبيره مليئا بالحياة الدافقة، والحركة السخية، لتبرز الشخصيات حية تعيش واقعها في ساعته، وتؤثر في مجريات التاريخ، وتوجهه، بكل ما

(١٤١) النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ص : ٥ د / محمد غنيمي هلال ـــ دار نهضة مصر ــ بدون ــ القاهرة .

(١٤٢) الشخصية في سوائها وانحرافها ص :١٠ د / مصطفي فهمي (المكتبة الثقافية) عدد ١٦٣ ــ الدار المصرية .

(١٤٣) بناء الرواية ص : ١٠٨ ــ سابق .

أوتيت من عظمة وعبقرية ... من هنا يمتد تأثيرها في المتلقي"[١٤٤]، ويختلف هذا التأثير، قوة وضعفا، تبعا لجودة البناء الفني، ومدى قدرة الأديب على الإقناع من خلال التوازن القائم في العمل، بين الشكل والمضمون ... بين الفن والفكر.

والمبدع الحقيقي للفن القصصي ، لابد أن يكون مهموما بشخصياته ، بحيث لا تتفلت خيوطها، أو تتجمع ، أو تنزوي ، وتموت ، فيتواصل مع الشخصية على طول الطريق، فيعي وجودها ، وأماكن ظهورها ، أو اختفائها ، وتوهج مشاعرها ومكنوناتها، إلى حد إن لم يكن يبهر القارئ ؛ فإنه يقنعه على الأقل ، ويجعله يوغل مع الشخصية في عوالمها المتعددة، داخل الرواية ، ولا ينفر منها ، عند مطالعتها، فإن أساس الرواية الجيدة ــ كما يقول أرنولد بينيت [١٤٥] : هو خلق الشخصيات، ولا شيء سوى ذلك ؛ وأن للأسلوب وزنه، وللحبكة وزنها، وللنظرة الجادة وزنها ، ولكن ليس لشيء من هذا وزن بجانب كون الشخصيات ليست مقنعة ، فإذا كانت الشخصيات مقنعة ، فستكون أمام الرواية فرصة للنجاح " .

وإبداع الشخصية ، وزرعها داخل العمل الإبداعي ، يحتاج إلى يقظة المبدع وذكائه ، والتمكن من أدوات فنه ، إلى حد الاحتراف ، حتى يضمن لشخصيته الحياة والانتشار داخل العمل الروائي ، وفي ذوات المتلقين " فتبقى في كيانها المستقل ، حية وحيوية في حركاتها وسكناتها ، يحس القارئ من أعمالها حرارة هذه الحياة ، ويتعرف من فعلها ما تتميز به من شمائل وحقائق ، فلا تتكلم هذه الشخصية إلا بالأسلوب الطبيعي الذي يلائم نفسيتها ، ولا تعمل إلا وفق الحوادث على منهجها المرسوم لها "[١٤٦] ؛ فـ " قوة الخلق الفني لشخصية قصصية ، لا تكون فقط في حياتها المتدفقة النابضة داخل القصة نفسها ، بل في حياتها خارج

---

(١٤٤) التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جوده السحار : ص ٩٢ ، ٩٣ بتصرف ــ د/صفوت يوسف زيد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ــ القاهرة .

(١٤٥) نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث : ص ١٧٣ وما بعدها بقلم مجموعة من الكُتاب ــ ت. د/ إنجيل بطرس سمعان ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٨م ــ القاهرة.

(١٤٦) دراسات في القصة والمسرح : ص ١٠٥ بتصرف ــ محمود تيمور ــ مكتبة الآداب ــ بدون ــ القاهرة .

القصة، في حياتها الممكن استمرارها على وجوه أخرى في رءوس الناس"(١٤٧)، وذلك لا يكون إلا عندما تتحول هذه الشخصية إلى نمط عام ، ونموذج تندرج تحته شخوص تتفق معه في السلوك والمواصفات . فشخصيات الرواية لا تكون ذات تأثير فعال ، إذا ظلت على فرديتها ، ولم تأخذ صفة العموم ... وهي لن تكون كذلك ؛ إلا إذا تحولت إلى نموذج ، له شبيه في الحياة ، يشترك معه في جل مواصفاته التي قدمها الروائي .

فالأديب الروائي المبدع هو الذي "يشكل شخصياته من أنماط كثيرة من الناس، يأخذ من كل منهم صفة أو أكثر من الصفات الجسمية والفكرية والسلوكية، حتى في طريقته التي يتعامل بها مع الأشياء والناس ؛ نزقه ، تهوره، هدوئه ، ودقته في التحري والتقصي والفهم ، أو تسرعه وسطحيته ، يأخذ من كل ذلك ما هو موجود في الحياة لدى شخص أو أشخاص ، ثم يضيف إليه من خياله ، بحيث تصبح الشخصية قادرة على تحقيق هدفه من عملية الإبداع ، أو بعبارة أخرى : حتى يقول بها، وعن طريقها ما يريد البوح به ، ولكنه يحجم عن التصريح ؛ لأن الفن لا يعرف المباشرة .. عند ذلك ، تكون الشخصية والأحداث وبقية الأدوات الفنية الأخرى ، هي التي تقوم بتبليغ المتلقي ما يريد المبدع توصيله إليه ؛ دون أن يقصد إلى ذلك مباشرة . ولكي يفعل ذلك ، ولكي تكون شخصيته في الرواية محددة المعالم، ينبغي أن يصنع لكل شخصية بطاقة تعريف، أو شهادة ميلاد ، ولا نقصد بذلك بيانات عن مولده ، ونشأته، وما شابه ذلك، وإنما أردنا من شهادة الميلاد هذه الإلمام بالمؤثرات التي كَوَّنت الشخصية ، من ثقافة واجتماع واقتصاد وسياسة ، ونحو ذلك مما له فاعلية في تشكيل الشخصية على النحو المراد(١٤٨) .

---

(١٤٧) في الأدب : ص ٢٢٤ ــ توفيق الحكيم ــ دار الكتاب اللبناني ــ ثانية ــ ١٩٧٣م ــ بيروت .

(١٤٨) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة ص: ٦ للمؤلف .وهو في الأصل رسالته لنيل درجة الدكتوراه .

ومن هنا ، قلنا : إننا لا نريد بيانات عن المولد والنشأة ، وإنما نريد تجميع العوامل المؤثرة التي تخلق في النهاية الشخصية الحية ، التي تتفاعل مع الأحداث ، بل مع الحياة التي تصنعها ..

عبر هذا الوعي بالعملية الإبداعية ، والاحتراف الفني ، تولد الشخصيات مقنعة فنيا ، وهي في كل ما تقوم به من أفعال وأقوال ، يجب أن تكون ممكنة الحدوث ، أو يُتَوَقَّعُ العثور عليها في واقع الحياة اليومية التي يحياها البشر، على نحو ما ، مجمعة في أشخاص ، فيدرك ببصيرته الواعية كل أمر له مغزى ، فيصور نوازع الشخصية ، و يغوص في أعماقها ، حتى يجلي دخائلها ، واتجاهاتها ، ومُثُلَها العليا ، وصِلاتِها في الحياة خلال الصراع المتعدد ." فالقصص الفني ، هو القصص الذي لا يقتصر على الجانب الواعي من حياتنا اليومية ، واللون البادي من مجتمعنا الظاهر ، بل يتغلغل فيما وراء الوعي ، وينفذ إلى باطن الحياة والمجتمع ، حتى تنجلي له تلك الطوايا التي إليها مراجع الحفز والتوجيه ، والقَصَّاص الفنان ، هو الذي يبصرنا بالحقيقة الخافية ، والباعث المكنون ، فيرينا من أنفسنا ما نُسِرْ ، ويصارحنا من أمرنا بما نكتم ، فإن لم يفعل ذلك ، فهو أقرب إلى أن يكون صاحب عظات طنانة تهتز لها المنابر والمنصات ، فيصفق لها السامعون ما شاءوا أن يصفقوا ، وقلوبهم جميعا في شغل بما يضطرم فيها، من أشتات النزعات والغرائز، ومن مختلف العقد النفسية، والملابسات المتشابكة تسير بهم على حكمها في طوع، أو على كره")[١٤٩]، فالقاص العظيم إذن: هو الذي "يخلق شخصيات منفردة ، ذات ملامح فنية خاصة ، تجعل القصة خالدة في ساحة الأدب العظيم،[١٥٠] ، وتجعلنا نتوقع دائما رؤية هذه الشخصية ، أو تلك ، بين الذين يعيشون حولنا ، أو يقاسمونا الحياة ، إن لم تكن صورة لنا ، ونحن نطالع هذه الروايات . ولعل هذا ما كان يدركه منذ وقت مبكر (مصطفى صادق الرافعي)، وهو يصوغ مقالاته، ويرسم في متنها شخصية النبي (ﷺ) ، موظفا كل ما يمكن أن نسميه (تقنيات) فنية وإبداعية ، تدعم تجربته في

(١٤٩) دراسات في القصة والمسرح : ص ٩٠ ــ سابق .
(١٥٠) دراسات في نقد الرواية : ص ٢٨ ــ د / طه وادي ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب (دراسات أدبية) ــ ١٩٨٩م ــ القاهرة .

بناء الشخصيات ، وهو يشكل رؤيته الإبداعية ، دونما كتابة قصص فني بالطبيعة الفنية التي تعارف عليها كُتَّاب القصة والرواية في العصر الحديث .

وعظمة الرافعي الكاتب والأديب الإسلامي لا تكمن ــ كما يقول النقاد ــ في القدرة على خلق أو ابتكار الشخصيات ؛ لأنه لم يكن معنيا في المقام الأول بذلك ، شأن كُتَّاب القصة المحترفين !! لكن عظمته تكمن في قدرته على توظيف الطاقات أو الإمكانات الفنية في تشكيل ملامح الشخصية النبوية التي ربما يعرفها الناس على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم، وهوية تفكيرهم. فيسلط آلة تصويره (كاميرته) على جوانب النور والتوهج في الشخصية المحمدية (ﷺ) ، وإن كانت كل الشخصية المحمدية، طاقات من النور المتوهج في فضاء الأمة ، واختراق إشعاعاتها لا يحده حد، أو يقف قبالته سد!! ، فهي بسموها ، وعبق أريجها، تسبر أغوار الكون، و تسطع أنوارها في العالمين . من ثم ، نراه يركز عدساته اللاقطة، ويكثف انبثاقات طاقاته الوجدانية، على التماعات لها دورها في تشكيل هوية المجتمع، المستشرف لآفاق الشخصية النبوية ، في تقلباته المُرسلة بإشعاعاتها في حياتنا من جهات عدة . فتراه يلمح إلى عظمة الدين الذي شكل هوية هذه الشخصية وقدمها للأمة لتكون مشعل نور يهتدي به الحيارى في العالم المدلهم بالظلمات التي تراكمت في المجتمعات منذ عصرها الأول وحتى يومنا هذا. فما تميز به الدين من خصائص إنسانية وحضارية بالضرورة تنطبع بها شخصية النبي (ﷺ) المكلف بالرسالة ، وينبغي أن تنطبع بها شخصية المسلم المعتنق ، والمتمثل للعقيدة والمتبع لهذا النبي العظيم (ﷺ) فيقول :

" وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ هَمَّه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة . وسيادة الطبيعة ، وعملها للتفريق ، هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية ([١٥١])" .

---

(١٥١) وحي القلم : ٢/ ٥ .

فسمة القوة التي يغري الإسلام نبيه (ﷺ) وأتباعه من المسلمين . ومن ثم ، تكون سنة يتعبد المسلمُ اللهَ تعالى بالاتصاف بها ، فهي قوة بانية وفاعلة ، ليست كقوة الطغاة والقساة الذين يوظفونها في تحطيم المجتمع وتكسير عظام طاقات البناء فيه . ومن ثم ، ترسم هذه السمة الحضارية مساراتها في المجتمع ، وتمتد للحياة الأخروية ؛ لتحفر أخاديدها ، وتتصل عبرها ينابيع الفضيلة في تربة الحياة !!

" ومن هنا كان طبيعيا([١٥٢]) في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع : يحرص على ما يكون له ويَشْرَهُ إلى ما ليس له ، ويمكر الحيلة ، ويبدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا، بل نظرة القلب المسالم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد([١٥٣]) ".

" ... أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله ــ تعالى ــ قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه التفت هذا الإنسان ، وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس : لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكَبَد ، ويترجمان عنه حتى معاني النظر([١٥٤]) " .

في المقطعين السابقين يحاول الرافعي أن يصنع ما يمكن تسميته المعادل الموضوعي للقيم الإنسانية والروحية التي يمكن أن يتصف المسلم بها فيحرر معنى الرذيلة وما ينتظر مرتكبها ، ومفهوم الفضيلة وما يلقى معتنقها وناشرها في الحياة بين الناس . والحلال وما يستلزم من المسلم الانتباه له والحرص على

---

(١٥٢) لعل الأصح : (طبعيا) !.
(١٥٣) وحي القلم : ٢/ ٥.
(١٥٤) السابق : ٢/٥ .

نقائه، والحرام وما ينتظر معتنقيه ومروجيه في المجتمع ، وأثر كل هذه القيم على حيالة المجتمع وحيويته ؛ لأن وظيفة الإسلام هي الانتصار لكل ما يدعم وجود هذا الإنسان وتفعيل حركة هذا الوجود في المجتمع ، والاتجاه به شطر التعمير والبناء والتحضر والارتقاء بإنسانيته ؛لأن كل ذلك هو مناط التكليف بمهمة (الخلافة) التي هيأه الله (سبحانه وتعالى) لحمل أمانة القيام بها في الحياة .

يركز الرافعي الغواص الماهر بأسلوبه الأدبي الرفيع ، الذي يغوص بالمتلقي إلى أعماق بحار اللغة ، يصيد لؤلؤها الذي لا يمكن لكثيرين ممن يجيدون صنعة الحرف ، أن يستكنهوا جوهر لآلئه ، أو حتى يختبروا نفاسة طعومه التي يصطاد بها تلك الجواهر!!.

فاللغة التي يجيد الرافعي اللعب بها ، والتفوق وهو يبدع في عجنها بماء العواطف ، وعصارات الأحاسيس ، وإنزيمات الوجدان ، هي فارس الحلبة في إبداعه لقصائده (النثرشعرية)، تلك المدونات الشعرية بارعة الجمال التي ربما تضيق عنها متن لغة الشعر وطاقات النضارة والغضارة فيه ، عن أن تستوعب أنشوداته النثرية العبقة بجواهر الجمال ، وأمارات الحسن ، وآيات الإبداع ، جعلته ينسج هذه المقطوعات الوصفية بلغة (حبلى) بالإيحاءات والإيقاعات ، وفائضة بالمقومات النفسية والروحية ، تنطلق في عملية الإبداع في خطوط منحنية ، ترتفع حينا ، وتنخفض حيناً ، كما تصنع أنغام الموسيقا ، ومنحنيات تعبيراتها ، لها قدرتها على السيطرة على النفس المتلقية ، واستغراق الوجدان الإنساني عند التلقي . سيما ، إذا عرفنا ــ الآن في ظل التقدم التقني ــ أن جميع الكائنات تستجيب للموسيقا ، كالنباتات والحيوانات حتى الأجنة تدرك بذاتها ، هذا النوع من التعبير الروحي الجميل !!.. وإذا كان الأمر كذلك ، فما بالنا بالإنسان العاقل ، القارئ ، الذي يعنى بالإبداع الأدبي ، وينجذب نحو هذا الجمال الإبداعي الرائع ، الذي تصنعه اللغة الشفيفة ، الممتلئة بالأحاسيس ، والمشاعر الرقيقة الفياضة؟!!! .

عبر هذه التقنية الإبداعية لعملية الإبداع الأدبي ، يحرص الأديب أن تكون لغة كتابته مثقلة بالصورة الشعرية الشفافة . ذلك ؛ لأن النثر هو قبل كل

شيء ، إنما يمثل اللغة التي يتحدث الناس بها في حياتهم اليومية ، ولا يريد الأدب أن تتدنى لغته إلى هذه النثرية الفجة المبتذلة ، فتسعى على أيدي كتابه إلى ترقية لغته ، حتى يمكن لها أن تتصنف في الأدبية ، كأنها تسعى لأن تتقمص لغة الشعر الخارجة عن نظام لغة التعليم والفلسفة ، والتأليف الأكاديمي .. إنها لا ترضى بأن تكون لغة تتماس مع الشعر الذي شعار لغته الخط المنحني ... فلغة الشعر الحق ، إذن ، تجسد الجمال الفني الرفيع ، والخيال الراقي البديع ، والحس الشديد الرهافة ، والرقة الشديدة الشفَّافة ، بالإضافة إلى ما ينبغي أن يكون في اللغة الشعرية من جدة الإبداع ، ولذة الابتكار " (١٥٥) .

فموسيقا اللغة ، أو موسقة الألفاظ اللغوية ، عبر عملية الإبداع ، تكمن في اختيار كلماتها وحروفها، وتكرارها وترادفها، ومدها وتقصيرها ، وانتقائها، وفرزها ، عند تركيبها ونظمها في جمل .. كل ذلك باستطاعته منحنا متعة روحية وجمالية رائعة ، إن فكرة الحس الجمالي ، شيء متأصل في اللغة العربية ، يمتد إلى بنية الكلمة ومخارج حروفها ، ووزنها ــ بل وحتى إلى ظاهرة الإعراب ... " فاللغة العربية تؤثر الإيقاع ، إذا تعارض مع القاعدة ، ويكاد يكون ذلك قاعدة رئيسة. إن الجمال فوق كل شيء ، الفاصلة في القرآن الكريم تهتم بأن ترضي الأذن، ولو أدى ذلك إلى تحطيم قاعدة صرفية أو نحوية، وفكرة الانسجام الصوتي يمكن أن تضحي بالقواعد الإعرابية أحيانا ... إن الكثير من الظواهر اللغوية، التي تبدو حشوا في اللغة العربية، يمكن أن تجد تفسيرها في فكرة الحس الجمالي ؛ فالتكرار ، والترادف والأحرف الزائدة ، لا يدل على لفظية وثرثرة على حساب الجوهر والمعنى ، بل هو يصدر عن حس موسيقي ، يعطي للأذن راحتها ، ويوفر لها وسائل الإيقاع .. ولهذا السبب ، وصف القدماء اللغة العربية بالاتساع والتطوع " (١٥٦).

---

(١٥٥) راجع نظرية الرواية ص : ١٢ د / عبد الملك مرتاض . بتصرف ــ عالم المعرفة عدد (٢٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب ــ الكويت .

(١٥٦) راجع الوسطية العربية : مذهب وتطبيق ، الكتاب الثاني ص : ٣٠٠ ، ٣٠١ بتصرف ــ د/عبد الحميد إبراهيم ــ دار المعرفة ــ ١٩٨٦م ــ مصر .

فاللغة بهذا المستوى من المعطيات البنائية ، قادرة على صنع هذا العالم المتواشج ، فهي التي باستطاعتها تشكيل هذا الكم الهائل ، من متطلبات عملية البناء الفني . وبدونها ، لا يمكن وضع لبنة واحدة في هذا البناء الجميل ، الذي يتطلب مهارة واحترافًا ، قد لا يتوافرا لكثير من المبدعين ... فالوعي بصياغة اللغة، وتطويعها لأداء المهام الإبداعية ، وتوظيفها التوظيف المناسب ، في كل ركن من أركان هذا العمل ، يعمل على إنتاج بناء فني مبهر متناسق الأجزاء والألوان ، في وحدة تامة ومتكاملة . فاللغة وحدها ــ إذا ما أجيد استخدامها ــ هي وحدها التي يمكن أن تصنع هذا البناء المتماسك ، وهذا ما يؤكده الناقد الانجليزي هينكل فيقول : (١٥٧)

" إن المرء يستطيع أن يلمس داخل معظم الأعمال الروائية الجيدة بناءً داخليًا، يتشكل من خلال اللغة فحسب ، قد يتمثل أحياناً في مجموعة من الصور المتواشجة فيما بينها ، وفي أحيان أخرى يتمثل في تكرار كلمات بعينها ، تشير إلى نوع بذاته من التقييم الدلالي ... وفي أحيان ثالثة يتمثل ذلك البناء الداخلي ، في نمط من الأبنية النحوية التي تعاود الظهور مرة بعد مرة في مواقف خاصة.... " .

من ثم ، تأتي أهمية إفراز " لغة موسيقية " أو عاطفية .. " فاللغة العاطفية تولد نوعًا من الحركة التي تنسرب داخل أفكارنا ومشاعرنا ... " (١٥٨) خاصة في الإبداع الأدبي ، تصنع نوعًا من التواصل النفسي والروحي والعاطفي بين الأديب والمتلقي. يقول "هكسلي: "بضرورة موسقة النثر القصصي، لا بطريقة الرمزية، بإخضاع المعنى للصوت، ولكن على نطاق أوسع في تركيب القصة"(١٥٩)..

يحاول الرافعي أن يوظف وسائط أو طاقات أسلوبية في سرده لهذه الخصائص أو السمات التي يسلط عليها أشعة آلة تصويره التي يجيد حركتها الفاعلة ليضيء جوانب شخصية النبي (ﷺ) في حركتها الفاعلية في الفضاء

---

(١٥٧) قراءة الرواية ص : ٢٩٣ . سابق .
(١٥٨) المرجع السابق ص : ٢٩٢ .
(١٥٩) اللغة وتقنيات البناء القصصي . ص:١٦ : ١٨ بتصرف ــ د . كمال سعد محمد خليفة ــ مطابع جامعة أم القرى ــ أولى ــ ١٤٣٠هـ ــ مكة المكرمة .

الإنساني ، الذي أراد الكاتب أن يقدمه عبر إبداعه الأدبي ، هذه الوسائط يدعوها النقاد في نظريتهم النقدية بـــ " مستويات السرد " التي يوظفها الروائي أو القاص في تشكيل الفضاء الإبداعي عبر رؤيته الخاصة في بناء الشخصـــية النبوية .

الرافعي ــ ربما بدون قصد ــ يحاول أن يمزج بين مستويات السرد الأربعة وهو يمارس عمليته الإبداعية هذه ، عبر طاقات [السرد التابع / المتقدم / الآني / المدرج (١٦٠)] بحرية مطلقة في توظيف أي منها ، وهو يختار بين لوحاتـــه ، التي تدعم فكرته ، وهو يقدم تجربته الإبداعية .

فهكذا يصنع الرافعي وهو يقدم لوحاته التي تطمـــح فـــي تشـــكيل الهويـــة الإسلامية التي تشكلت عبر تاريخ زاخر من القيم والأحـــداث الفاعلـــة المترعـــة بالتفاعلات الحضارية التي صنعتها الأحداث عبر تاريخ الإســـلام وحيـــاة النبـــي الكريم(ﷺ) .

لكن ما نأخذه على الكاتب ربما لطبيعة البناء الفني المقال الذي يختلف فـــي طبيعته الفنية عن بناء القصة ، بوصفها فنا مختلفا ومستقلا عن المقال وإن كان متنها/ سردها القصصي يستوعب كثيرا من الفنون شعرية كانت أو نثرية ، نأخذ عليه إسرافه في بيان المغزى والهدف سيما إذا كان تعليميا ، كمـــا فـــي حالـــة الرافعي من العملية الإبداعية .!! لأن المقال لابد أن يذيل بالهدف من صـــياغته ، والمغزى التعليمي أو حتى الفني من إبداعه ، بخلاف القاص الذي يثق بالمتلقين ، ويترك لهم الحرية في التفاعل أو التعالق مع تجربته الإبداعية ، ويتـــرك عمليـــة إدراك الهدف أو المغزى للمتلقي بحسب درجة أو نقطة التلاقي بين طرفي العملية الإبداعية ؛ المنتج (الأديب) ، والمتلقي (القارئ) .

وهذا ما ستراه في المقاطع التالية :

" وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها، لا يقررها للإنسانية حسب، بل يغرسها في الوراثة غرسا بالاعتياد والمران الـــدائم،

---

(١٦٠) السرد التابع : يقوم فيه الراوي بذكر أحداث قبل زمن السرد . السرد المتقـــدم : ســـرد استطلاعي يتواجد بصيغة زمن المستقبل . السرد الآني : سرد بصيغة الحاضـــر المعاصـــر لزمن الحكاية . أي أن أحداث الحكاية وعملية السرد يدوران في آن واحد . السرد المـــدرج : سرد يقع بين فترات الحكاية . أي ينبثق من أطراف عدة وهو الأكثر تعقيدا.

لتكون علما وعملًا، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة ، في أيدي الأعداء المتألبة عليها من شهوات الغريزة ([١٦١]) ".

" فليس يعم السلام إلا إذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح منتزعا من طبيعة التراحم، فإما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شرته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية([١٦٢])."

" تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعًا، هذا هو أساس العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاح للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها، فإن من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع، وتجانس بين أفراده، فتوجه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها ، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها ، وتأخذ عاصيها بمطيعها ، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول ؛ لأن الله الحق غرضها الأخير؛ فيصبح المرء ــ وهذا دينه ــ كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان : الإنسان ، والشريعة . ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليمسكه ؛ فلا يدرك في الآخرة شيئا غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع([١٦٣]) " .

" وللنفس وجهان: ما تعلن، وما تسر؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السر فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلا بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه ([١٦٤])" .

" وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمر فيه، وآتيه الذي يمتد له؛ ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ما بعده كما ورث ما قبله، وما حاضر الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية([١٦٥]) " .

---

(١٦١) وحي القلم ص : ٦/٢
(١٦٢) السابق ص : ٦/٢
(١٦٣) وحي القلم ص : ٢/ ٦
(١٦٤) السابق ص : ٧/٢
(١٦٥) السابق ص : ٢/ ٧

" وللنظام أيضًا وجهان : نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية والنفرة منها. ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به ([١٦٦])".

" وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقنها، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر: كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع ، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها، لذة كلذة إدراكه ([١٦٧])".

" وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير معدما ويتعفف ، ويكون الغني موسرا ويتصدق ، ويكون الشره طامعا ويمسك ، ويكون القوي قادرًا ويحجم ، وكما قال العربي في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي: " تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها !!([١٦٨])".

" تريد الإنسانية امتدادًا غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاد الغراب قومًا فإنما هو ــ كما قال شاعرنا ــ يمر بهم على جيف الكلاب... والإنسانية اليوم في مثل ليل حوشي مظلم اختلط بعضه في بعض ، وليست معاني الإسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته([١٦٩]) .

" وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي ، إلا أن تعيش في محبوب ؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي ، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها

---

(١٦٦) وحي القلم ص ٢ /٧
(١٦٧) وحي القلم ص ٢ /٧
(١٦٨) وحي القلم ص ٢ /٨
(١٦٩) وحي القلم ص ٢ /٨

العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد(ﷺ)؟([١٧٠]) " .

في نهاية مقاله الإبداعي يوجه نصيحته مباشرة ، وكأنه فرغ لتوه من عظة إيمانية !! ، فيشرع يقصد المخاطب (المتلقي) من أقصر طريق، موظفا الطاقات البلاغية الإنشائية؛ في النهي والأمر؛ ليسمو بالمتلقي المشتبك مع الفكرة، ويرتفع به إلى حيث يطل من نافذته الفكرية، التي تشكل رؤيته الفنية، وتصوره (الإيديولوجي) الفكري، على النحو الذي يجعل المتلقي متفاعلا وتابعا ومنصتا له.

" لا تنقطع عن نبيك العظيم ، وعش فيه أبدًا، واجعله مثلك الأعلى؛ وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بيد يديه ؛ كن دائما كالمسلم الأول؛ كن دائما ابن المعجزة ([١٧١]) ".

ثم ينطلق ليوضح في لوحة فنية أخرى يكشف عن جوهر شخصية المسلم التي تنبثق وتتفجر ينابيع الإنسانية فيها من المكتنز الرباني المطمور في ذاته (ﷺ) بوصفه المعلم الذي صنع جيل المسلمين وأمرنا ربنا تعالى أن نستلهم روحه ونقتدي به إنسانا روحانيا ونبيا حضاريا ومعلما مخلصا ومبلغا أمينا لرسالة رب العالمين . فحقيقة المسلم الذي تتصل ذاته بذات النبي الأكرم (ﷺ) ، نتاج الثراء الروحي والإنساني والحضاري ، لشخصية الرسول الكريم (ﷺ) ..

---

(١٧٠) وحي القلم ص ٢ /٩

(١٧١) وحي القلم ٢/٩ .

اللوحة الثانية
حقيقة المسلم

" لا يعرف التاريخ غير محمد (ﷺ) رجلًا أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله ؛ كما تنصب المادة في المادة ، لتمتزج بها فتحولها ، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو (ﷺ) وجود سار فيها فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحول ... كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه ، يتحيفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته ؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة ، والثاني فتح لها طريق العودة إليها ، كان في آدم سر وجود الإنسانية ، وكان في محمد (ﷺ) سر كمالها(١٧٢)" .

يحاول الرافعي أن يرينا الرابطة بين النمط المسلم ؛ الإنسان المسلم التي أفرزته قيم وخصائص الأنموذج النبوي / ذات ، أو شخصية الرسول (ﷺ) ، ولم يكن هذا الوصل إلا برابطة الدين الذي يصنع نماذجه الإنسانية الحضارية على هذه الصفة !! .

فالرسول محمد (ﷺ) آدم جديد ، جاء ليبعث الإنسانية من وهدتها التي قعدت بها عن إفراز نماذج إنسانية قادرة على إدراك دورها في هذه الحياة ، وكأنها بليت ووهنت من تتالي الدهر عليها ، وعضبت من إيغالها في الزمن !! فعالجها الله (سبحانه وتعالى) بآدم جديد محمد (ﷺ) ؛ آدم الذي يعيدها إلى حيث هي في طبيعتها التي خلقها الله عليها ، ومن أجل مهمتها ، آدم يعيدها إلى الجنة بعد أن أخرجها آدمها القديم منها !! آدم تتجدد به الإنسانية وتتحول إلى حيث (إسلامها إلى واجبها في الحياة) ؛ دورها الذي خلقت من أجله ؛ وتهيأ لها هذا الكون ،

---

(١٧٢) وحي القلم ص :٢/ ١٠

وسُخِّرت كل طاقاته من أجل حصول هذا الهدف ، كي يتحقق لها كمالها المتصل بكمال نبيها (ﷺ) .

" ولهذا سمي الدين بالإسلام ؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرفها ، وتعتملها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية بها الحظ(١٧٣)". ومن ثم، "حققوا في كماله (ﷺ) وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء(١٧٤)".

" ورأوا في إرادته (ﷺ) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض ، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده (١٧٥)".

وعرفوا به (ﷺ) تمام الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان رجعت له الطفولة في روحه ، وامتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء ، فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مسددة لا تزيغ ولا تنحرف ، فلا شر ولا رذيلة ؛ ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئا، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه ، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل ، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدم به مع الخبز القفار، كما يؤتدم باللحم وأطايب الأطعمة(١٧٦)" .

---

(١٧٣) وحي القلم ص : ٢ / ١٠
(١٧٤) وحي القلم ص : ٢/ ١٢
(١٧٥) السابق ص : ٢/ ١٢
(١٧٦) السابق ص : ٢/ ١٣

لقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه ؛ فما يحسها إلا كأنها قُبَل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه!([١٧٧])" .

" وكان يبتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المرزّأُ المبتلى يعرف فيه الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح ، فهي جراح وتشويه وألم، وهي شهادة النصر!([١٧٨]) "

" ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالًا على نفسه ، بل كانت له أسباب قوة وسمو؛ كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا ، ويحمل دائما من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين ([١٧٩])" .

" وكانت الحقيقة – التي جعلها النبي (ﷺ) مثلهم الأعلى، وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله – أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه ، إذ إنها واجبة بكل مسلم على غيره ، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة ، تجعل المسلم وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها([١٨٠]) " .

" المسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها ، لا إنسان ضيق مجتمع حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر؛ تقول الأمانة لكليهما: لا قيمة لميزانك إلا أن يصدقه ميزان أخيك([١٨١]) ".

" ولن يكون الإسلام صحيحا تماما حتى يجعل حامله مثلا من نبيه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته ؛ يقهرها مرة وتقهره مرارًا؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهي قانون وجوده .([١٨٢]) " .

---

(١٧٧) السابق ص : ٢/ ١٣
(١٧٨) السابق ص : ٢/ ١٣
(١٧٩) السابق ص : ٢/ ١٤
(١٨٠) السابق ص : ٢/ ١٤
(١٨١) وحي القلم ص : ٢/ ١٤ .
(١٨٢) السابق ص : ٢/ ١٤ .

فإذا ما أصبح إنسان الإسلام على هذه الصفة ، بهذه الصورة ، استوت عنده كل ملذات الحياة ، وأصبحت القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود لا طبيعة الحاجات وهوى الشهوات !! واستعذبت في سبيل تحقيق ذلك كل ألم ، وكل ضعف، وكل انكسار. ومن ثم ، تجده نصرا ولذة يسطر بهما شهادة النصر، بتاريخ القوة ، ولغة الإيثار والطمأنينة . فتجعل منه (مثلا من نبيه (ﷺ) في أخلاق الله .. !!) .

يحاول الرافعي هنا أن يصنع المعادلة الصعبة كما يقولون !! ، عندما يقدم لنا صورة النبي (ﷺ) في صورة المسلم وليس العكس !! ولكن كما العادة يصنع تميزا ليس مسبوقا به في الإبداع الأدبي . سيما ، وهو يقف على عتبة العصر الحديث بكل طاقات تقاناته الإبداعية الجديدة ، التي أفرزتها معارك النقد ونظرياته المُدْعَاة بالحديثة ، وفي الوقت نفسه يحمل تراثا عظيما من القيم والأصالة، والرؤى الفكرية والنقدية الرصينة منطلقا من تراثنا العربي والإسلامي . " والانطلاق من الجذور لا يعني التقليد، والانطلاق من الواقع لا يعني الذوبان فيه ، بل الانطلاق منه وتجاوزه، ومحاولة تغييره والتغلب على تياراته السلبية ، فالتأثير الفاعل للفن في الواقع لا يمكن أن يتحقق عن طريق موازاته لهذا الواقع وتمثله له ، بل عن طريق الاشتباك معه والتقاطع مع اتجاهاته .. ما يجعله قادرا على التغيير، وتحريك ما يتقاطع معه من مقومات الواقع ؛ إن الإبداع والتفوق لا يتحققان في أن ينسج الإنسان على منوال عصره فيكون صورة عن الداء ، بل أن يكون صورة معكوسة أو مناقضة له ؛ ليست المهارة في أن نسبح باتجاه التيار ، بل أن نسبح بالاتجاه المعاكس لنصل إلى الأرض التي نختارها نحن لا التيار . وهذه الحقيقة وحدها تجنبنا السقوط في التقليد والسير على خطى الماضي دون أدنى محاولة لتطويره ، وتبعدنا عن خطر الذوبان في الواقع وإلغاء دورنا الفاعل فيه(١٨٣) ".

(١٨٣) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد ص : ١٦٧ د/ أحمد بسام ساعي ــ (سلسلة في الأدب الإسلامي ونقده رقم " ٣ ") ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥ م ــ جدة .

هذه الخصوصية التي ناط الله بها المسلم الحقيقي ، والتي كان مبعث تجليها وإشراقها في ذات المسلم ، وسبر غور حقيقة شخصيته ، والتي كانت انعكاسا حيا لواقع شخصية الرسول الكريم (ﷺ) ، وهو يشير من طرف خفي لطبيعة الشخصية النبوية وسماتها وخصائصها المركوزة فيها ، والتي صنعها الله (عز وجل) على عينه ومن ثم أفرغت في شخصية المسلم وصنعت حقيقته على النحو الذي أراده الله عز وجل وخلقه على هذه الهيئة البانية قال تعالى : " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه (١٨٤) ". وكذا فيما سطره سبحانه وتعالى في محكم تنزيل : " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (١٨٥) "

ثم ما يلبث بعد أن بين حقيقة ما ينبغي أن توسم به الشخصية المسلمة الحقة، والتي يمتد حبل حياتها السري بحياة النبي الأعظم محمد (ﷺ) ، أن يطرح أحداثا تعطف قيما حضارية ، تضاف إلى ما تتمتع به الشخصية النبوية ، تتجلى عبرها كذلك سمات وخصائص روحية وإنسانية ، تشكل فيما بينها ، ومع ما سبق ، بُعدًا جديدا في تشكل الشخصية النبوية بثرائها القيمي والحضاري والإنساني ، والرباني الفريد !! .

من أهم هذه الأحداث التي لها حضورها وحركتها وتأثيرها في حياة النبي الكريم محمد (ﷺ). ومن ثم، في حياة كل مسلم، حدثا الهجرة والإسراء والمعراج، وكان لكل منهما دوره في حركة النبوة ، وكان لتداعياتهما فاعليتها في تطور حركة الدعوة والصدع بالدين الجديد ، لذات النبي الـ(آدم) الجديد !! الذي قاد حركة التحول الحضاري والإنساني والعقدي في الجزيرة العربية ، ومن ثم في العالم كله .. ليطرح الرافعي رؤيته في مهمة المسلم المتبع لدين محمد (ﷺ) ولرسالته بوصفه القدوة والأنموذج والأسوة الحسنة ..

---

(١٨٤) سورة الأعراف ، الآية : ٥٨ .
(١٨٥) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٤ ،٢٥ . .

أولا : وحي الهجرة (١٨٦) :

تلك المقالة التي أرسل بها الرافعي إلى مجلة (الرسالة) لنشرها في ذكرى الهجرة النبوية المُشَرَّفة ، يحاول عبرها ــ من منطلق خلفيته الفكرية ، ورؤيته الحضارية لمثل هذه الأحداث في تاريخ الإسلام ، والتي تعد محطات لها خصوصيتها الإسلامية والحضارية في حياتنا وواقعنا الإسلامي ــ أن ينطلق في معالجته لهذه الذكرى العطرة من رؤية إنسانية وحضارية خاصة به بوصفه مفكرا وأديبا إسلاميا ، وبوصف الذكرى حدثا متفاعلا مع شخصية النبي (ﷺ) ، وملتحما مع تاريخ حياته النبوية المشرفة ، والمشرقة في حياتنا ، وفي الجانب الأخر متشابكة مع الإسلام بوصفه دينا منتجا لهذا الحدث ، ومتفاعلا مع حضارية هذا الدين ، وبوصفها حدثا مهما في الإسلام ، ومؤثرا في حركة التطور الحضاري للأمة الإسلامية . ومن ثم ، له دوره العظيم في بناء شخصية الإنسان المسلم؛ الأنموذج الحضاري المؤهل لأداء مهمته التي خلق في هذه الحياة من أجلها، والمهمة الحضارية التي أناطه الدين بتبليغها في الأرض ..

يسعى الرافعي لأن يوظف ما يمكن تسميته في لغة السينما بتقنية : (الارتداد) إلى الوراء، أو العودة إلى الخلف. وهو ما يسمي في لغة صناع ونقاد السينما وموظفي وسائطها الفنية وسيلة: (الفلاش باك)، القائم على عملية التذكر. وهو ما يسمي في عملية الأسلبة الروائية بـ(السرد التابع)، الذي يقوم فيه الراوي بذكر أحداث حصلت قبل زمن السرد. بأن يروي أحداثا حدثت في الماضي بعد وقوعها بزمن . وهذا هو النمط التقليدي للسرد بصيغة الماضي (...) . وهذا ما يصلح أو ينسجم مع طبيعة السرد القائم على التسلسل الزمني ، الذي يأتي من الخارج ، أو عن طريق حياد المؤلف المزعوم القائم على اصطناع ضمير الغائب.. إن اصطناع الماضي المتمحض للسرد لدي الحكي، برهان على النظرة الواعية بعملية الإبداع (السرد) ، وإدراكها بأن ما تقدمه ليس تاريخا ولا من التاريخ ، ولا من الحقيقة ، ولا من الوجود ، ولا من الواقع في أي صورة من صور الحقيقة !! ، وإنما هو من قبيل الخيال ، الجمال ، الفن ، واللعب باللغة ، والإبهار بالحكي

(١٨٦) وحي القلم ٢/ ١٤ وما بعدها .

...إنه من قبيل تمثيل الواقع في ثوب الخيال ، هو تطلع إلي رسم صورة فنية أو أدبية لعالم واقعي لم يوجد في حقيقته قط .. فالحقيقة هنا أدبية لا تاريخية ، وإبداعية لا واقعية، وذلك على الرغم من أنها تجسد عصرا ومجتمعنا وأناسا، كأنهم أحياء يرزقون !!، بحيث تبدو هذه التجربة الإبداعية ، تجربة فنية جميلة ، يتسلى بها القارئ ويفيد منها بالضرورة ويتعلم، ولا نقول يتسلي فحسب !! كما يقول الدكتور عبد الملك مرتاض: "مجرد لعبة فنية جميلة ، يتسلى بها القارئ أو يتلهى"([١٨٧]) فحسب!!.. فالفن هذا الكائن الجمالي يجب أن يكون له دوره الحضاري والإنساني في الحياة ؛ في جميع حركاتها واتجاهاتها المختلفة .!!

وهذا ما أكده الرافعي الأديب نفسه في قوله ، وهو يتهيأ لكتابة هذا المقال يتحدث عن التاريخ ([١٨٨]):

" ... فإذا الكلمة من ورائها معنى ، من ورائه طبيعة ، من ورائها سبب وحكمة ؛ وإذا كل حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معا ، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخَطْرتين، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثواني، وحد الساعة إلى حد اليوم ؛ وإذا البيان في نفسك من كل هذه الحواشي، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مُفَنَّنٌ في ظاهره وباطنه ، يفيء عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الحي الموجود بأسرار ما كان موجودًا من قبل " .

" كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لأكتب عنه هذه الكلمة، فلم أكن –علم الله– في كتاب ولا في حكاية ، بل في عالم انبثق في نفسي مخلوقا تاما بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهله جميعًا ، كما يرى المحب حبيبه ، لا يكون الجميل في محل إلا امتلأ مكانه بعاشقه ، فهو مكان من النفس ، لا من الدنيا وحدها ، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة، وكما هي في الحب بمظهر الروح ([١٨٩])".

---

(١٨٧) في نظرية الرواية ص : ١٦٦.
(١٨٨) وحي القلم : ٢/ ١٥
(١٨٩) وحي القلم ص :٢ / ١٥ .

الأديب يلجأ إلى التاريخ لقدرته على منح شخوصه أو " نماذجه الاجتماعية / التاريخية تجسيدًا إنسانيًا حيا " (١٩٠) . من ثم ، الذي ينهل في إبداعه من أحداث التاريخ ، ويرسم شخوصه ، لابد أن " يَنْصَبَّ اهتمامه على حياة الناس في الفترة التاريخية التي يتناولها ، وبعد ذلك يجسد القدر الشائع في شخصية تاريخية ، ويبين كيف أن مثل هذه الأحداث ترتبط بمشكلات الحاضر، فالعملية إذن عملية متماسكة عضويًا ، إنه يكتب من الناس ؛ من تجاربهم ومن أرواحهم"(١٩١) .

يجد الرافعي لدى التاريخ ثراءً في الأحداث والشخوص ، يمده بطاقة إبداعية، ربما لا يستطيع إدراكها في الواقع ، لما للتاريخ من سعة وثراء في الأحداث والشخصيات . فعلى الرغم من هذا الثراء ، وهذه السعة التي ينبغي أن تمنح المبدع حرية الاختيار، والحركة داخل إطار الحدث ، أو بناء الشخصية ، إلا أن هذه الحرية محفوفة بالمخاطر ؛ إذ التاريخ محكوم بأحداث حدثت ، ولا يملك أحد تغييرها ، ومحكوم أيضا بالعمل الفني الذي يستعين بالتاريخ في طرح قضية تلح على مجتمعه المعاصر ، إن الذي يكتب عن التاريخ ، كالذي يسير على حبل مشدود فوق هاوية، فهو ملتزم بالتاريخ ، وفي الوقت نفسه مطالب بالتخلص من قبضته الحديدية !!.

فالكتابة عن التاريخ " تستلزم وعيًا بالاختيار، ودقة في التعبير عن الحدث الذي يبلور مع غيره الشخصية ويوظفها لأداء دورها الحضاري، فالأدباء يرتكنوا للتاريخ ؛ ليؤنبوا الشعب الكسول ويحرضوه على التمرد والنهوض ، للتخلص من مفاسده، حيث يكون التاريخ قدوتهم. من هذا المنطلق تصبح الرواية التاريخية أو النموذج التاريخي ضرورة اجتماعية قادرة على التغيير الذي يعد وظيفة أساسية من وظائف الفن، وليس ترفاً ثقافيًا، أو لهوًا يغري الشباب بالدعة والتهام أوقات

(١٩٠) اتجاهات الرواية المصرية : ص ٢٥ د / شفيع السيد ــ مكتبة الشباب ــ ١٩٨٧م ــ القاهرة

(١٩١) السابق نفسه : ص ٢٥ .

فراغهم، أو حتى ــ كما يدعى البعض ــ تعليمهم التاريخ من خلال هذا النوع الإبداعي فحسب(١٩٢) " .

وإذا كان التاريخ عاملًا مشجعًا لارتياد آفاق الإبداع الأدبي نظرًا ؛ " لسهولة التشكيل الفني لمادته دون أن يواجه المبدع بمعاناة الخلق الكامل للعمل الأدبي، في شكله ومضمونه(١٩٣) " . فإن ذلك يستلزم من المبدع حسًا خاصًا ، ووعيًا فريدًا بما يقوم به ، من تشكيل لهذه المادة الهائلة من معطيات التاريخ . فعندما يتمثل التاريخ في عملية الإبداع ، لا يعني هذا هروبًا من الواقع الماثل أمامه ، يعايشه في إطار مجتمعه ، وليس خارجه (فما الواقع الذي نحياه إلا امتداد لهذا التاريخ)، الذي يصطفي المبدع نماذجه منه، فالتاريخ يستطيع أن يمنحنا خاصية فنية، يمكن تسميتها بـ(الإسقاط) حيث يستدعى المبدع حدثًا تاريخيًا وقع منذ زمن بعيد ، أو يأتي بشخصية تراثية ذات ارتباط بأحداث تاريخية معينة ، سيما الشخصيات العالقة بأذهان الأمة بسلوكيات أو أفعال عظيمة ، فيحاول إسقاطها على أشخاص حاليين، ما زالوا يعيشون واقعنا ويحيون بيننا ، أو يتخذه المبدع رمزًا للعدول عن التعبير المباشر ، فيعيد الوعي الحضاري للأمة، ويوقظ مشاعرها نحو تاريخها التليد، ونماذجها الناضجة المشرقة ، ذات الحضور الممتلئ حركة وفاعلية في ذاكرة الأمة ؛ لتصوغ حاضرها على منواله من حيث القوة والحضارة " ذلك أن التاريخ بمثابة ذاكرة الأمة ، وبقدر ما تسلم للأمة ذاكرتها ، وتُحْسِن التعامل معها ، بقدر ما يمتد تأثيرها ، وتبرز قدراتها وتقوى شخصيتها " .(١٩٤)

فالأديب يُهْرَع إلى التاريخ ؛ ليربطه بما يعتمل ويقع في مسرح الحاضر ، من قضايا ومشكلات ، فيعبر خلالها عن آمال الأمة وطموحاتها ، ذات الاتصال

---

(١٩٢) الأدب الإسلامي : مقاربات في النظرية والإبداع ، ص : ٨٠ ــ د . كمال سعد محمد خليفة ــ طبعة خاصة ــ ٢٠١٥م ــ أسيوط .

(١٩٣) الواقعية في الرواية العربية ص ٨٥ د / محمد حسن عبد الله ــ دار المعارف ١٩٧١م. مصر .

(١٩٤) مجلة الأمة عدد ٤٢ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ (المسلمون وضرورة الوعي التاريخي) عبد القادر عبار . رئاسة المحاكم الشرعية والأوقاف ــ الدوحة ــ قطر .

الوثيق بالحاضر المعاش باهتماماته وتعقيداته ... وكثيراً ما تتشابه هذه الأحداث والشخصيات ، فهناك " أمور مشتركة في الحياة تعلو فوق خصائص الزمان والمكان ، وتلك في الغالب هي الملتقى الذي يجتمع فيه المفكرون والكُتَّاب من كل جنس وعقيدة ، عندما يستلهمون التاريخ في الفن " . (١٩٥)

وعلاقة المبدع بالتاريخ ، لا تقوم على القسر أو التكلف أو الإكراه ، لكنها تقوم في مجملها على التفاعل الخالق بين ذات الأديب والحدث التاريخي أو الشخصية وذلك وفقا لوعيه الاجتماعي التاريخي بواقعه ، وبالدور الذي يؤديه في هذا السياق ، لأن الكُتَّاب عندما يقدمون هذه المحاولات ، يقدمون النماذج الرائدة لشعوبهم ، فتتبلور هويتهم وتستوي شخصيتهم ، فيتجهون نحو مسارهم الحضاري الصحيح .

والأديب عندما يوظف للتاريخ ، أو يستلهم أحداثه وشخوصه ، لا يكتفي بنقلها من مظانها التاريخية ، لكي يعرضها علينا دون هدف أو مغزى فني من هذا النقل ، فهذا مكانه كُتب التاريخ وليس إبداعات الفن ، بل إنه عندما يختار الشخصية التاريخية المناسبة في إبداعه الأدبي ، ينبغي أن تكون هذه الشخصية " ذات دلالة خاصة نفسية أو أخلاقية ، أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو غير ذلك ... ثم يحاول أن يعرض تلك الدلالة في بناء فني متكامل تتحقق فيه السمات الفنية للرواية الناجحة"(١٩٦) .. ملتزماً تصورًا متكاملًا ، وصحيحًا لهذه الشخصية في علاقاتها مع الناس الآخرين ، ومع الحياة (المجتمع) ومع الكون بكل ما يحوى من مخلوقات أخرى متعددة .. من ثم يجيء العمل الفني متكاملًا ومتساوقًا متميزًا بالحيوية والصدق في إطاريه الفني والفكري ... " فإن كلمات الصدق ، والورع ، والشجاعة، والإيمان ، إذا جاءت بمفردها ، عارية من الإشراقات الروحية (الجمالية) التي يشعها البناء الفني، أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحي بشيء"(١٩٧).

---

(١٩٥) الإسلام وحركة الحياة ص ١٢٨ د / نجيب الكيلاني .
(١٩٦) فنون الأدب (المسرحية) ص ٥١ د / عبد القادر القط ــ دار النهضة العربية ١٩٧٨م. بيروت .
(١٩٧) الإسلامية والمذاهب الأدبية ص ٢٥ د / نجيب الكيلاني .

التاريخ ــ إذن ــ يمنح الأديب حرية من نوع خاص داخل الفضاء الإبداعي ، عند تشكيله وبنائه على النحو الذي يجعله قادرًا على الصدع بالتمرد والتغيير الذي يهدف إليه الكاتب ... فالفن والفنان بهذا المستوى الواعي بمضمون العمل الإبداعي، "يجدان لنفسيهما الوحي والإلهام في أحداث التاريخ ، وظواهره ، وأبطاله، فيتخذان من هذه الأحداث ، الظواهر / الأبطال التاريخية ، نواة ينطلق منها خيالهما الفني الخلاَّق ، وينسجان حولها من رؤيتهما ، ورؤاهما الإبداعية ... وهنا يكون الخيال الخلاَّق لدى الفنان الذي يتصرف في الشخصية التاريخية ، ويعدها لخدمة غرضه ، مقيداً بالإطار التاريخي العام الذي يغوص خلال أحداثه وظواهره وأبطاله، فيبدأ منها بالماثل تاريخيًا وواقعيًا ؛ لينطلق صوب الرمز المعنوي (المثال). ولا ضير أن يبتكر شخوصًا وأحداثًا فرعية في الإطار التاريخي العام لتحقيق هدفه الفني"[١٩٨]، على أن تكون الحقائق نصب عينيه ، والشخصيات في إطارها المرسوم والقائم فنيًا وتاريخيًا، فإن مراعاة أسس الإبداع الفني، لا تعني إهدار الحقائق، أولي عنقها، بما ينأى بها عن الصدق، ويضعها في مكان يخرج بها عن الحقيقة التي يراها الفنان نفسه ..

" فالكاتب بما هو فنان مبدع ، لابد أن يترك لخياله أن يلعب دوراً مهماً في رسم الشخصية. ورسمه للشخصية ، يعتمد كثيراً على فهمه لها ، وعلى قدرته على تمثيل دور الشخصية التي يريد رسمها ، وعلى تصور التصرفات التي قد تصدر عن شخصية من الشخصيات تحت ظروف معينة معتمدًا في ذلك على القياس. ولهذا فإن حدود رسم الشخصية القصصية لا تقتصر على النطاق الذي تَجُولُ فيه الملاحظة المباشرة ، أو على المعلومات التي تنحدر إلى الكاتب من مصادره الثانوية ، بل يعتمد اعتمادًا كبيرًا على إدراكه لإمكانيات الشخصية الإنسانية، ولطاقاتها الكامنة، وهذا الإدراك يتوقف على فهمه لشخصيته ، وقدرته على استبطانها، والفطنة إلى أحاسيسها الداخلية..[١٩٩] " .

---

(١٩٨) بين الأدب والتاريخ ص ١٤ بتصرف . د / قاسم عبده قاسم .. كتاب الفكر (٧) . دار الفكر للدراسات والنشر ــ أولى ــ ١٩٨٦م. القاهرة .

(١٩٩) فن القصة : ص ٩١ ، ٩٢ بتصرف . سابق .

من هنا، يتعالق الفن مع التاريخ في إبداع الشخصية ، فينظر الأديب إلى الشخصية وينفعل بها ، أو يتفاعل معها، من زاوية خاصة لا نستطيع أن نفصلها عن مشاعر الفنان، ومواقفه الذاتية، وانتماءاته الفلسفية والعقدية ، بل ومزاجه الشخصي، وتأثره بوجهة نظر ذات طبيعة متميزة . فهو يفسر التاريخ ، ويعلق عليه، ولا ينقله. من ثم، يسرب أفكاره في عمله الفني خلال هذا البطل أو ذاك الحدث التاريخي المقتبس، أو قل: المعدل عن طريق الخيال الذي يمنح الأديب القدرة على صياغة المادة التاريخية بصورة معينة ، وفق منطق معين ؛ لأنه يرتبط بعملية التشكيل في البناء الفني، تلك التي تمثل "قدرة الروائي على التخييل الإبداعي العقلي الذي يصوغ المادة التاريخية، إذ تبقى الصورة التي يرسمها المؤرخ عن الماضي مشتقة من نسج خياله، كل تفصيل من تفاصيلها لمنطق يمليه، أو يتحكم فيه هذا الخيال الإبداعي، الذي يصوره الاستدلال العقلي البحت"(٢٠٠) .

وهنا يلتقي ــ عند هذه النقطة ذاتها ــ المؤرخ بالروائي ، فـ " كل منهما يرمي إلى رسم صورة تتألف من عدة عناصر ، بحيث تنطوي على حكاية ، أو قص الأحداث ، ووصف المواقف ، وعرض الدوافع أو البواعث ، وتحليل السلوك، أو فعل الشخصيات في البيئة ، وانفعالها بالأشياء .. كما أن كليهما يرمي إلى تقديم صورة كاملة من حيث التماسك والتناسق ، حيث تبدو كل شخصية ، وكل موقف حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف ؛ لكي تسهم بتضافرها في تكامل أبعاد الصورة ، فنشعر من خلال تصوير كليهما للشخصية أنها ما كان لها أن تتصرف في هذا الموقف ، إلا بأسلوب معين ، ينبع من طبيعة الموقف التي تحيا فيه ، وإدراكها العقلي لهذا الموقف " . (٢٠١)

وليس هذا معناه : أن يسير التاريخ مع الفن (في الرواية) في خطين مستقيمين ، يتوازيان ، ولا يتقابلان ، فدرجات الوعي عند المبدعين تتفاوت بين " الاستغراق في الحدث التاريخي ، واستعادته في نسق جمالي يدل على الحدث ــ

(٢٠٠) نقلاً عن: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث: ص ٨، ٩ د/ قاسم عبده قاسم، د/أحمد إبراهيم الهواري ــ دار المعارف ــ ١٩٧٩م ــ مصر .
(٢٠١) السابق و الصفحة نفسها .

وكذا الشخصية ــ كما وقع في الماضي ، أو تحويره بما لا يخرج به عن سياقه الأصلي ، وقد يتصاعد وعى الكاتب إلى حد امتلاك نظرة نقدية تأملية ، تتيح له قدراً من الانفصال ، ومن ثم ،" قدرة على ربط الماضي بالحاضر ، والوصول إلى القوانين الكلية التي تحكم حركة التاريخ فيما نعرفه بفلسفة التاريخ"(٢٠٢).

فالتاريخ في جملته، ليس هو الحوادث التي تقع ، أو الحروب والثورات التي تنقد فحسب ، إنما هو" التفسير لهذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة ، امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان ... ولكي يفهم الإنسان (المبدع) الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها، روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : غيبية ومعنوية ومادية ، وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقعها في مداركها ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد(٢٠٣) ".

من هنا ، يصبح التاريخ مصدرًا خصبًا من مصادر الإبداع ، لكونه غاصًا بالنماذج الإنسانية ذات الحضور الطاغي على مسرح الأحداث ... من هنا وجد الأدباء أنفسهم مدفوعين نحو هذا الثراء ، باعتباره مادة ثرية متسعة الجوانب ، رحبة الأبعاد ، تحدوهم دوافع فنية وفكرية وقومية من أهمها : سهولة العثور على مادة أو موضوع يصلح نواة لعمل روائي ، أو إحياء للقيم والثوابت الحضارية للأمة في عهدها المشرق ، والمترع بقيم الحب ، والخير ، والعدل ، والحرية ، والفضيلة ــ في أسمى معانيها ، المحصنة بحضارة الوحي ، والوعي الديني والتشريعي في صدر الإسلام ، أو محاولة لبعث النماذج الحية ذات العطاءات الحضارية الحية في تاريخ الأمة الذي أهيل عليه التراب، أو إظهار لمواقف مشرفة وجوانب حية وحضارية في تاريخنا العربي، والإسلامي، وتحقيق لنوع من التواصل الفني الذي يتجاوز الطرح المباشر للقضايا التي يزدحم بها

(٢٠٢) الواقع والتاريخ : ص ٢٣٧ ــ د / اعتدال عثمان ــ فصول ٢/٣ يونيو ١٩٨٢م.
(٢٠٣) حركة البطل في الرواية الإسلامية ص ٣٧ ــ د. كمال سعد محمد خليفة دار طيبة للطبع والنشر ــ أولى ــ ١٩٩٩م ــ أسيوط .

مسرح الحياة ، وحماية لوجودنا في مهب التيارات الوافدة ، تيارات الغزو الفكري الأجنبي ." فوعينا بذواتنا يقضي حتما أن نعرف ماضينا ، وأن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بُتِرَتْ منها أصولها، فلا يجرؤ واعٍ على الزعم بإمكان الاستغناء عن قديمنا (تراثنا) ، لا لكونه تسجيلا لوجداننا التاريخي فحسب، ولكن كذلك لما له من أثر في تكوين ذوقنا، ووجداننا على مرالعصور وتتابع الأجيال(٢٠٤)".

في ضوء هذا التصور الإبداعي لعملية بناء شخصية فنية ، تتكئ على التاريخ، تتجلى النماذج النابضة الحية المشرقة ، والبطولات المضيئة في حياة الأمة، فـ"الإنسان هو غاية الأدب، وحين يزدهر الإنسان في هذا العالم تتفجر إمكاناته ، وطاقاته الإبداعية ورؤاه الفكرية ، فيتدفق عطاؤه في كل اتجاه حياً فياضاً ونابضاً في مجتمعه في زمان ومكان ، فيحفز الآخرين على النهوض والتمرد على كل ما هو من شأنه أن يزهق هذا المجتمع ، أو يقضي عليه من مفاسد ، أو ضعف ، فيمحو الخراب ، ويقضي على الزيف ، فيطلع النهار حاملًا أملًا مشرقًا وجديدًا (٢٠٥) " .

وعى الرافعي كل هذه الطاقات الإبداعية في توظيف الحدث التاريخي ، يركز آلة تصويره على اللحظة أو البؤرة اللامعة في الحدث التاريخي ، ليستخلص من رحيقها عصارة / ماء الحياة ؛ ليشكل بها ملامح الشخصية التي يعنى برسمها أو إبداعها ، عبر تشكيله لرؤيته الفنية ، وهو يقيم بناء الشخصية النبوية .

ومن ثم تُرَاه يقول :

" وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح، متى أنت سموت إليها رأيت فيها غير المعنى يخرج معنى، ومن لا شيء تخلق الأشياء، لأنك منها اتصلت بأسرار نفسك، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها؛ فيصبح التاريخ معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفضت به الحكمة إلى الحياة لتستمر بالنفس

---

(٢٠٤) قيم جديدة للأدب العربي: ص ٨ ، ١٤ بتصرف ــ د / عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) دار المعرفة ــ أولى ــ ١٩٦١م. القاهرة .

(٢٠٥) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة وقيمتها في العمل الفني ص :٦٨ :٧٤ بتصرف كمال سعد محمد خليفة طبعة خاصة ــ ٢٠١٢م ــ أسيوط .

الإنسانية، لا فن علم الناس على الوجه الذي أفضت به الحوادث مما بين الحياة والموت([٢٠٦])".

بطريقة الارتداد إلى الخلف أو الاسترجاع أو التذكر ، يلتقط الرافعي من تاريخ حياة النبي (ﷺ) صورا ، يحاول أن يضعها بجوار بعض في اللوحة الكبيرة التي تشكل الشخصية النبوية المشرفة ؛ ليعيدنا إلى اللحظات / اللقطات الباكرة في عمر الشخصية، وكأنه يقدم لنا (ترجمة ذاتية) عن محمد النبي (ﷺ) في مكة، ويختصر تاريخها كله ، ومعاناتها في سبيل نشر الدعوة، وعرض شريط الأحداث، وكأنه يستعرض صورا فيلمية متحركة تحكي فصولا من تاريخ حياة الشخصية الرسالية (ﷺ) ، وهي تتهيأ للمهمة الأعظم ، والأكثر حيوية في تاريخ الدعوة الإسلامية ، والانتقال إلى مركز النور، ومَرَادِ التوهج الحضاري للنبي (ﷺ) ، وللرسالة التي تَحَمَّل تكاليف الجهاد في نشرها . " فيصور الرافعي انبلاج نور الإسلام واختيار الرسول (ﷺ) لمهمة تبليغه ، في لقطة موجزة ومتوهجة ناصعة ، ترتل تسبيحة فجر ندي ، وتَنَفُسَ صباح غضٍ قشيب ، فينشد صلاة باكرة أخاذة :

" نشأ النبي (ﷺ) في مكة ، واستنبئ على رأس الأربعين من سِنِّه ، وغبر ثلاث عشرة سنة يدعو الله من قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلى رجل وامرأة وغلام: أما الرجل فهو هو ﷺ، وأما المرأة فزوجه خديجة، وأما الغلام فعلي ابن عمه أبي طالب ([٢٠٧]) ".

يلج الرافعي مسرح الأحداث بهذه الشخصيات ذات الشأن العظيم في الإعداد والترتيب لرحله الهجرة المباركة ، سواء بالمؤازرة أو المشاركة بأدوار تدفع حركة الحدث للأمام نحو الوجهة التي يريدها النبي (ﷺ) ؛ بطل هذه الأحداث . ومن ثم نجد الأحداث تنبع منه وتتفجر في مسارات مرسومة بدقة ، يحاول الكاتب أن يتجاوز تسلسلها بوصفه أديبا وليس مؤرخا !!.

" ثم كان أول النمو في الإسلام بِحُرٍّ وعبد: أما الحُرُّ فأبو بكر، وأما العبد فبلال ، ثم اتسق النمو قليلا قليلا ببطء الهموم في سيرها ، وصبر الحر في

---

(٢٠٦) وحي القلم ٢/ ١٧

(٢٠٧) وحي القلم ص : ٢/ ١٥ ، ١٦ .

تجلده؛ وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو؛ وكأن النبي (ﷺ) أخو الشمس، يطلع كلاهما وحده كل يوم. حتى إذا كانت الهجرة من بعد، فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مر بقدمه على مركزها فحركها؛ وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ، ومعانيها تخط في التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب ([٢٠٨])" .

" .... وأوذي رسول الله (ﷺ) ، وكذب وأهين ، ورجف به الوادي يخطو فيه على زلازل تتقلب ، ونابذه قومه وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، وانصفق عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم ؛ فأصيب كبيرا باليتم من قومه ، كما أصيب صغيرًا باليتم من أبويه ([٢٠٩]) ".

" ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلًا تثبت أن النبي (ﷺ) ليس رجل ملك، ولا سياسة ، ولا زعامة ؛ ولو كان واحدا من هؤلاء لأدرك في قليل ؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه ، وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها؛ ولو كان لحملهم على محضها وممزوجها ؛ وليس رجلا متعلقا بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كفر يوم ؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ، ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الأرض، ولا رجل حاضره إذا كان واثقا دائما أن معه الغد وآتيه ، وإن أدبر عنه اليوم و ذاهبه ؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط ، ولا رجل الأرض في الأرض ، ولكن رجل السماء في الأرض([٢١٠]) ".

" وكان (ﷺ) على ذلك – وهو في حدود نفسه وضيق مكانه– يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي

(٢٠٨) السابق ص : ٢/ ١٦ .
(٢٠٩) السابق ص : ٢/ ١٦ .
(٢١٠) وحي القلم ص : ٢ / ١٨ .

سينتصر فيهن ــ قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة ــ مشرقة في قلبه(ﷺ)([٢١١]).

عبر تلك المشاهد المصورة المتتالية من ذلك السرد السينمائي ــ إذا جاز التعبير ــ يحاول الرافعي الكاتب والأديب الموهوب، والملهم بحب الرسول (ﷺ)، وفي ذكرى هجرته المباركة ، ذات الثراء الحضاري المضمخ بعبير القيم الإنسانية والحضارية التي يشهد له بها العدو قبل الصديق !! ، وتصنع فيما بينها على اختلاف مواطنها وإشعاعاتها الروحية والإنسانية ، جديلة فنية رائعة تشكلت عبرها صفحة من صفحات هذه النفس الذكية المباركة ، نسجت خيوطها من نور السماء وإشراقات الأرض الزاهية بعبير الحياة . تلك كانت قصيدة شدو إيماني وروحي رفيف !!

يحاول الرافعي أن يداعب طاقات اللغة إلى جوار طاقات الفن الروائي ، فيخلو إلى أحاديث النفس ، والأخبار والأحداث ، ويستولد منها بعض القيم والخصائص البلاغية واللغوية ، التي تكشف في تلافيف نسجها عن لدانة لغوية ، وطراوة أسلوبية ، ورقة إيحائية ، لتكاد تطفر من بين خيوطها تلك السمات ، التي بلورت هذه القيم التي عني الكاتب بإبرازها وتجليها في ذات النبي الخاتم الملهم (ﷺ) . تضيف تلك المشاهد إلى أخواتها في اللوحة مناظر معبرة عن أبعاد جديدة أخاذة ، في شخصية النبي الكريم (ﷺ) .

" وبموت أبي طالب وخديجة، أُفرد النبي (ﷺ) بجسمه وقلبه ، ليتجرد من الحالة التي يغلب فيها الحس، إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة ، ثم ليخرج من أيام الاستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثم لينتهي بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة، فيتصل من ذلك بأول عالميته الكبرى([٢١٢])".

ربما في هذه اللقطة الأخيرة الملبدة بسحب مأساوية، وخلفية تصويرية محزونة، موشاة بالسواد !! إلا أن على ضخامة صدعها لم تنل منه (ﷺ)، بل ولدت فيه إرادة قادرة ، ودافعة في الوقت نفسه على استئناف الرحلة ، نحو تحقيق الهدف المروم!! فالنبي الأعظم (ﷺ) . لم تنل منه كل تلك الأحزان ، ولم تصرفه عما أعده

---

(٢١١) السابق ص : ٢/ ١٩ .
(٢١٢) السابق ص : ٢/ ٢٠ .

الله له !!. ومن ثم ، وجدنا الرافعي يضع نهاية لهذه المعزوفة القاسية على نفس النبي محمد (ﷺ)، ويأخذنا معه إلى حيث النشيد الأبهى والأعظم ، والذي يشي بإرادة صلبة، وقدرة هائلة على تجاوز كل المآسي مهما عظمت، لكن في سبيل المحبوب يرخص كل غالٍ، وتهون كل الصعاب ، وتتحول بردا وسلاما!!.

" ألا ما أكمل هذه الإنسانية التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه ، فهذا فن الصبر لا الصبر فقط، وفن الحلم ولا الحلم وحده(٢١٣)".

" قوة الخلق هي التي تجعل الرجل العظيم ثابتا في مركز تاريخه لا متقلقلا في تواريخ الناس ، محدودا بعظائم شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصه الفاني ، ناظرا في الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغير للمنفعة(٢١٤) ".

لكنها لم تكن قوة طاغية ولا إرادة متعجرفة ، لكنها قوة في حق وإرادة في عزم منقوعان في رضى إيماني عظيم ، واستلهام رباني كريم ، يتوجه النبي صلب الإرادة قوي العزم إلى ربه واهب القوة وملهم الإرادة يرينا من جانبه الإنساني الفطري المركوز في كل بني البشر إذا ما اختُبِرُوا في مواجهة كالتي رأى وعايش محمدا (ﷺ) !! ، فيهرع إلى ربه شاكيا له ما وقع منه أمام جبروت الرفض وجبهة التكبر والاستكبار معلنا ثباتا منقطع النظير، و رضى نابتا من إيمان مكين !! :

" .... يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة ، فينطق الإنساني فيه بالشطر الأول من الدعاء ، يذكر انفراده ، وآثار انفراده ، ويتوجع لما بينه وبين إنسانية قومه ، ثم ينطق الروحاني فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء ، متوجها إلى مصدره الإلهي قائلا أول ما يقول: " إن لم يكن بك عَلَيَّ غضب فلا أبالي(٢١٥)".

لحظة الضعف الإنساني في الشخصية التي يحاول الرافعي أن يبرزها في إطارها؛ لتشغل مكانها من اللوحة ، تكشف عن وعي الأديب بأدواته الفنية التي يوظفها ، سيما في التعامل مع شخصية النبي (ﷺ) ، وهو يرسم اللوحة الكبيرة

(٢١٣) وحي القلم ص ٢/ ٢٢ .
(٢١٤) السابق ص : ٢ / ٢٢ .
(٢١٥) السابق ص : ٢ / ٢٣

في مقالاته، التي تحاول فيما بينها ، أن تشكل كل منها جهة من جهات الصورة الأكبر، لشخصية الرسول الكريم (ﷺ). فالإسلام يعترف بلحظة الضعف الإنساني مثلما يعلي من إشراقات القوة في النفس البشرية لكنه دائما ما يمد يده لاستنهاض المسلم من ضعفه وإنقاذه من وهدته والارتقاء به وفتح منافذ التوبة والأوبة إلى الله، ويهتف له بتجاوز هذه اللحظة ومحاولة الاستعلاء عليها .

وهذا ما وعاه الأديب ونجح في دمجه داخل اللوحة بحرفية فنية واقتدار ليس غريبا على أديب مثله !! .

يضيف الرافعي إلى ألوان ريشته التي يشكل بها اللوحة لونا آخر من الألوان الزاهية ، التي تسهم إلى حد بعيد في إبراز جانب آخر من جوانب الصورة ، وهو حدث الإسراء والمعراج الذي جاء مكافأة للرسول المحزون(ﷺ) ؛ ليسري عنه ويدنيه ، ويذهب عنه الحزن ، ويعيد شحنه بطاقات جديد وعظيمة ، تدفعه للإيغال نحو أداء المهمة الكبيرة التي لم تكن قد بدأت بعد !! وهي الهجرة المشرفة إلى أرض جديدة تهيأت لاستقبال الرسول (ﷺ)، وتهيأت كذلك لاستقبال دعوته ، وتهيأت أيضا لأن تكون تربة خصبة ؛ لاستنبات الأفق الحضاري للإسلام العظيم ، حيث انبثقت من هذه الأرض طاقات النور، التي أرسلت بأشعة الهدى إلى كل ربوع الدنيا ، حاملة مشاعل الرقي والتحضر، والقيم الإنسانية التي تصدح به كل طيور المحبة التي فتحت لها نوافذ الدنيا، تستقبل الهدى من ينبوعه الثر !! .

وهل لمحمد (ﷺ) ابن المرأة التي كانت تأكل القديد بمكة !! أن يستطيع أن يخوض غمار ذلك المجهول ؟! نعم هو كذلك طالما أن الله صنعه على عينه ، واختاره لهذه المهمة .. تعالوا نسمع للرافعي وهو يحكي لنا ذلك :

ثانيا: فوق الآدمية : الإسراء والمعراج :

تمثل رحلة: الإسراء والمعراج " حدثا مهما في تاريخ الإسلام . ومن ثم، في تاريخ الرسول (ﷺ) وكانت إيذانا بالتحول الحضاري العظيم في تاريخ أمة المسلمين . ومن ثم أثارت هذه الرحلة لغطا كبيرا ، وتزييفا فكريا لدى الناس وقتئذ!! مما جعل منها وما تبعها من صلاة النبي (ﷺ) بالأنبياء ، قطعا لكل

التخرصات ، وردا لكل الشائعات التي روجها بنو يهود . ومن ثم ، جاء بعد ذلك حدث تحول القبلة من بيت المقدس في فلسطين ، إلى البيت الحرام في مكة ــ حاضرة العرب وبيت أبيهم إسماعيل (ﷺ) ــ في السنة الثانية من الهجرة ، إيذانا بالتحول أو الانتقال الحضاري من أمة يهود إلى أمة المسلمين ، في مركزها الحضاري الجديد في الجزيرة العربية (مكة المكرمة) ، وبلواء النبي الأكرم (ﷺ) ؛ حفيد إسماعيل (ﷺ) وابن العرب ، ليجهز على كل تقولات المتقولين ، وينهي حقبة تاريخية طويلة كان لواء النبوة معقودا لبني إبراهيم (ﷺ) ، ومن تعدد النبوات والرسالات، وحالة الفردانية التي كانت تنحصر فيها الرسالة على مجموعة من الناس في بلد ما .. والرسول أو النبي (ﷺ) يرسل لقوم دون غيرهم، أو تتعاصر الرسالات !! كل ذلك التاريخ طُوِيَ بهذه الأحداث العظام ، وبدأت حقبة حضارية جديدة يتبوأ فيها الرسول محمد (ﷺ) هرم البلاغ وينعقد له لواء الهداية للناس كافة !!. وبهذا تنتقل الدعوة إلى عبادة الله من فردانيتها إلى الجماعية ؛ من هوية القبيلة أو القوم أو الجماعة ، إلى هوية الأمة ، تحت شعارها الأرقى والأعظم: "إن الدين عند الله الإسلام(٢١٦) " وقوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين(٢١٧)".

من منطلق حدب الرافعي واهتمامه بالتاريخ الإسلامي ، و صوابية رؤيته الفكرية ، الفاعلة في الاشتباك مع الواقع الإسلامي ، المنتج لثقافة بانية في المجتمع ، وتسهم ــ في الوقت نفسه ــ رقيه وتحضره ، يرى دور هذه الأحداث العظام في بناء شخصية الرسول (ﷺ) ، وأنها ذات أهمية في طرح حمولاتها الفكرية والإنسانية والحضارية عبر الأنموذج النبوي ، الذي ينفرد بخصوصيات لا تتوفر للكثيرين من البشر غيره ، ما يجعل الشخصية التي تحملت عبء كل هذه الإمكانات ، فريدة في البشر، كما سنرى في التشكيل الفسيفسائي الذي يشكل منه الصور والملامح ، التي تكمل اللوحة لتأخذ مكانها في الصورة الكبيرة .

---

(٢١٦) سورة آل عمران من الآية : ١٩ .
(٢١٧) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

يقول الرافعي ([٢١٨]) : " إذا كان (ﷺ) نجمًا إنسانيًا في نوره ، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى ؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقل الآن: أيعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة ؟ "

" ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسُخِّرَت له المعاني التي تُسَخِّر غيره من النـــاس ، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء . ومتى وجـد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه؛ فالنار مثلا إذا هي تضرمت أوجدت الإحراق فيما يحترق، فإن وُضِعَ فيها ما لا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها ([٢١٩]) ".

الرافعي يعرف أنه وهو يشكل هذه البنية الفنية لشخصـية الرسـول (ﷺ) قائدا ومعلما وملهما ، ذو إمكانات وطاقات لم تتوفر للبشر العاديين الذين نلتقيهم في الحياة . ومن ثم ، تكون أعماله في حياته ترتكن إلى ما هو فوق طاقة البشر. لذا، فعمله وسلوكه يصنف في المعجزات والخوارق التـي لا يسـتطيعها البشـر العاديين الذي يعنى بتصويرهم الأدباء !! فالنبي (ﷺ) تضافرت عبـر شخصـيته الفريدة طاقات الأرض مع طاقات السماء كما وصفه القرآن الكريم " قل إنما أنـا بشر مثلكم يوحى إلي ([٢٢٠]) ". وهذا ما يؤهل الشخصية للقيام بأداء هـذا العمـل وصنع هذا الحدث!! إن استحضار الشخصية النبوية التي لها حضورها في وعينا، " يمثل دفء الماضي في مقابل اهتراء الحاضر([٢٢١]) " .

والرافعي بثقافته الأدبية الراقية التي تتفهم حيوية العملية الإبداعية وأهميـة إثرائها بقيم الجمال ، نجده لا يهمل الطاقات الفنية التي يوظفهـا أولئـك الـذي يبدعون القصص والروايات في تجاربها الأولى ممـن تتلمـذوا علـى الثقافـات

---

(٢١٨) وحي القلم ٢/ ٢٧ .
(٢١٩) السابق ص: ٢/ ٢٧
(٢٢٠) سورة الكهف ، من الآية : ١١٠ .
(٢٢١) آليات السرد في الشعر العربي المعاصر ص ٤١ د. عبـد الناصـر هـلال ــ مركـز الحضارة العربية ــ أولى ــ ٢٠٠٦ م ــ القاهرة .

الأوربية وقتئذ ، عبر البعثات والترجمة للأعمال الأدبية في فنونها المختلفة ، التي لم تكن معروفة بصورتها الفنية التي كتبت بها في لغاتها ومجتمعاتها الأصلية ، مع الاحتفاظ بهويته الإبداعية التي سخر عقله وفكره وقلمه في حراسة عرينها لعقود، فتحت عليه أبوابا من المعارك ، التي ما كانت لتهدأ حتى تشتعل مرة أخرى، على امتداد جغرافيا خارطته الإبداعية الممتدة لعقود !! .

" الشخصية لم تكن غاية لذاتها ، خلال العملية الإبداعية ، لكنها تكشف عن موقف أو تؤدي سلوكا معينا ، يحكي من خلاله المبدع شيئًا ما ، يريد توصيله للقارئ أو إثباته للشخصية . ومن خلال هذا الموقف أو السلوك ، أو الفعل ، تتضح معالم الشخصية الروائية فتورى عن آراء الكاتب وأفكاره تجاه هذا الموقف ؛ لذا يصبح المبدع مسئولا ، مسئولية كاملة عن هذه الشخصية ، وما يجريه على لسانها من أحاديث، أو تقوم به من أفعال أو سلوكيات أو مواقف تضطلع بها في عالم الرواية([٢٢٢])".

من ثم، تصبح هذه الأفعال أو المواقف أو السلوكيات المتخلقة في كيان الشخصية، أو الصادرة عنها، تشكل في مجملها ، بعضًا من ملامح الشخصية ، فتبدو أو تتجسد أمامنا في إطار ما تقوم به من أفعال ، أو تؤدي من سلوكيات ... فَفِعلها أو موقفها أو سلوكها، هو الذي يطبعها بالطابع المميز لها عن غيرها من الأشخاص، ويحملنا على الحكم عليها من خلال هذا الموقف، أو ذاك السلوك الذي تصنعه . فنقول : إنها شخصية خيرة ، أو شريرة . قوية ، أو ضعيفة . مخلصة ، أو خائنة . أو هذا الإنسان شجاع أو جبان . مؤمن أو منافق . صاحب إرادة وتفكير، أو إمَّعَة يحيا على هامش الحياة . وغير ذلك من الأوصاف أو الطباع التي تطبع الإنسان وتميزه عن غيره من المخلوقين الآخرين في عالم البشر.

" ... فالموقف أو السلوك أو الفعل كلها مظاهر تطبع الشخصيات بطباع محددة ، يعيها الكاتب في رسمه لشخصياته ويلمحها القارئ أيضا ، وتسترعي اهتمامه أثناء عملية التلقي، من ثَمَّ، "يستلزم ذلك بصيرة ووعي نافذين بمعطيات السلوك أو الموقف أو الفعل ، وتوظيفها فنيا عندما يلبسها شخصياته ، حتى تغدو

(٢٢٢) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية وقيمتها في العمل الفني ص : ١٥٨ .

شخصية مقنعة إلى الحد الذي لا يستطيع القارئ عنده أن يسقطها من ذاكرتـــه أو يتخطاها ... وهنا تكمن قدرة الأديب ، واحترافه ، وتفرده ، في إبداع كل شخصية في الرواية ، في إطار مختلف عن الأخرى ، إذ الأفعال أو المواقف وإن تشابهت ، إلا أنها تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم!! . ففي أداء كل منهم تمايز ، وتباين، عن أداء الآخر ، في إطار يحكمه اختلاف مســتويات الشخصــيات واتجاهاتهــا، وأفكارها وتصوراتها الإنسانية والحضارية ... وهوية الكاتب واتجاهه، هو الذي يؤثر في بناء الشخصية ويؤهلها لتقديم دور ما، أو صنع موقف ما، أو إنتاج فعل ما أيضا، في إطار سلوك إنساني حضاري اجتماعي أو سيأســى أو اقتصــادي ، يؤمن به . ومن ثَمَّ ، تكون مسئولية الشخصية ملقاة على الكاتب وحده دون غيره ... ففي كل فعل أو حركة، أو سلوك، أو موقف، يعلن الكاتب عن أفكاره هو، وما يؤمن به، أو يحترمه من هذه المواقف أو العادات والتقاليد والسلوكيات([٢٢٣])"..

ولعل هذا ما وعاه (الرافعي) وهو يشكل رؤيته الفنية لهذا الملمح النبوي في خصوصيته الفريدة والقادرة ــ وليس غيرها ــ على القيام بمهمة الإبحار في الكون على بساط المعجزة من مكة ، إلى حيث معراجه في فضاء السماء ، وكأنه يعزف سيمفونية الالتقاء الفريد بين السماء والأرض ، والذي ما نزال نحن أتباعه (ﷺ) نبحرها في يسر وسهولة كل يوم خمس مرات ، عبر سفينة الصلاة التي لم تتح لغير أتباع النبي محمد (ﷺ) الذين تنفس معجزاته في ذوات ونفوس أتباعــه المسلمين حتى قيام الساعة !! .

" والنبي (ﷺ) لا يكون نبيا حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنواميس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيتها ، وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان البــاطن فيه إلا منزلة من يتلقى ممن يعطي؛ فذاك الباطن هو للحقائق التــي لا تحملهــا الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثــل الإنســان الأعلــى ، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تغيره ولا تعجزه ([٢٢٤]) ".

---

(٢٢٣) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة وقيمتها في العمل الفني ص : ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢٢٤) وحي القلم ص : ٢ / ٢٧ .

" .. فحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلح الوجود الإنساني به لتقر في هذه الحيوانية المهذبة مثلها الأعلى ، بدلالتها على طريقها النفسي مع طريقها الطبيعي([٢٢٥]) ، فيكون مع الانحطاط الرقي ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة ، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني ([٢٢٦]) " .

بعد أن فرغ من تلك اللمحة العبقرية التي وشَّى بها ، أو أضاء بها هذا المكان من شخصية الرسول ــ المضيء في ذاته ــ (ﷺ) ، تراه وكأنه يحاول أن يجمع كل ما سبق من مرايا ولوحات في هذا الإطار الإنساني الأعلى ، الذي يحاول طرحه وكأنه صورة من الصورة ، أو ملمحا يحاول أن يصبغ به كل الملامح ، عبر خاصية (الوصف) ، التي كثيرا ما يلجأ إليها كتاب القصة أو الرواية . وكأن الرافعي أفاد من التراث النقدي الذي أتيح له في الإسهامات النقدية المبكرة للإبداع القصصي . والوصف هو الوسيلة أو الواسطة الفنية الأكثر شيوعا في بناء الفضاء القصصي والتقنية الأكثر حيوية ــ إذا ما وظفت جيدا ــ في الأداء الفني لبناء الحدث أو الشخصية " .

الوصف ، بما أنه شكل تعبيري له حضوره الفاعل في بناء الشخصية الروائية ــ فتغدو واضحة الملامح والتقاطيع ، من منظور المشاهد البعيد ، الذي يصف ما يرى ، بصيغة ضمير الغائب ، وصيغة الزمن الماضي ، من ثم فهو من أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى هذه الغاية (تقديم الشخصية) ، فيتيح للمتلقي رؤية الشخصية ومعرفتها عن قرب سواء من الخارج أو الداخل ، سيما عندما يركز الكاتب الروائي في سرده على أعماق الشخصية ــ فإن له وظيفتين في العملية الإبداعية ([٢٢٧]) :

---

(٢٢٥) لعل (الطبعي) هي اللفظ الأصوب .
(٢٢٦) وحي القلم ص : ٢/ ٢٧ .
(٢٢٧) آليات السرد في الشعر المعاصر ص : ١٣٥ ــ د. عبد الناصر هلال ــ مركز الحضارة ــ أولى ــ ٢٠٠٦م ــ القاهرة .

" الأولى : جمالية : ويقوم في هذه الحالة بعمل تزييني وهو يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية ويكون وصفا خالصا لا ضرورة له بالنسبة لدلالة الحكي .

الأخيرة : تفسيرية : أي أن يكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي ".

وكما قال أحد النقاد : " يصنع للشخصية بطاقة أو شهادة ميلاد ، يُدَوِّن فيها كل ما يرتبط بالرواية ، أو كل ما من شأنه أن يجعل تصرفاته داخل الرواية عادية متوقعة ، فكأنه يمارس سلوكه الشخصي في حياته الخاصة . وهذا اللون من أدوات الكتابة أو الإبداع في رسم الشخصية يلجأ إليه الكاتب عادة لما يتيحه له من " تصوير دقيق ، وسريع في آن واحد " [٢٢٨] ... وهذه المقاطع الوصفية لم يأت بها الكاتب لمجرد الوصف وكفى ، لكنها تلتحم ــ في الوقت نفسه ــ مع الأحداث ، وتساعدها على التطور والنمو والتفاعل والتلاحم ؛ لأنها في الواقع جزء من الحدث نفسه ؛ لأن هذا الحدث أو هذا الفعل لابد له محدث فاعل ، وكلاهما هو الشخصية المُحْدِثَة أو الفاعلة ..

والوصف المباشر ليس مقصودًا لذاته ، وإنما يهدف الكاتب من ورائه إلى أن تكون ملامح الشخصيات منسجمة مع العمل الذي تؤديه في الرواية ؛ لأن العمل يحتاج إلى شخص يقوم به ، له ملامح معينة ، فالأديب يقوم بعملية تدبير مشاهدة قائمة بالفعل في الرواية لمظاهر الحياة (بيئة القصة) . . هذه الأشياء تعمل فيها بينها على إيجاد وسيلة (للكشف عن حياة الشخصية النفسية ، وتشير إلى مزاجها وطبعها) ، ومن ثم يصبح للوصف (دلالة خاصة ، وقيمة جمالية) تزيد من تعلقنا وشغفنا بالشخصية ، فتحملنا على متابعتها ، إذ " كل مقطع من مقاطع الوصف يخدم بناء الشخصية وله أثره المباشر، أو غير المباشر في تطور الحدث، فتلتحم كل هذه العناصر المكونة للنص الروائي، وتكتمل الوحدة العضوية للعمل، وتصبح الأجزاء المختلفة مرايا تعكس بعضها بعضا، لتقديم الصور

(٢٢٨) الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية ص : ١١ ــ صالح عبدالله العريني ــ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود مع المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) المملكة العربية السعودية .

المجسدة ... وكذلك يؤدي الوصف ما يمكن تسميته (بالوظيفة الإيهامية)، خاصة عندما يقف عند التفاصيل الصغيرة والدقيقة ، إذ يدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الرواية التخييلي ، ويشعر القارئ أنه يعيش في عالم الواقع لا عالم الخيال ، ويخلق انطباعا بالحقيقة أو تأثيرًا مباشرًا بالواقع"(٢٢٩) .

الوصف عندما يدق ، ويرق ، ويعمق ، ويُعْنَى بنقل الانفعالات والمشاهد بدقة ووعي ، ينقلنا الفنان بكاميراته إلى عالم غير موجود بالواقع على هيئته أو صورته ، وإن كان مستمدًا منه ... فالكاتب في هذه الحالة التي يمكننا أن ندعوها بـ(التصوير)، يمسك بكاميراته ، ويرقب الشخصية من بعيد ، يرصد كل حركة وكل فعل ، كل انبساط وانقباض ، يتعمق المشهد ، أو الحالة التي يصورها أو ينقلها إلى عالمه الخاص ... عالم الرواية ..

هذا النوع من التعبير، ذو طبيعة تمكننا من الوصول إلى جوهر الشخصية ، وسبر أغوارها من خلال هذه الملامح التي يرسمها الكاتب بريشته وحسه المرهف، دون نقل (فوتوغرافي) لهذه الملامح البشرية للشخصية التي يصورها ... فالوصف ينبغي أن يكون تعبيرًا عن رؤية الكاتب لهذه الشخصية ، حتى يستطيع أن يقنعنا بها وبمصداقيتها في العمل الفني ،" فالروائي يستطيع إما أن يصف الشخصية من الخارج كمتفرج ، متحيز أو غير متحيز، وإما أن يستطيع التظاهر بالإلمام بكل شيء فيصفها من الداخل ، أو يمكنه أن يضع نفسه مكان أي منها ، ويتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن دوافع الباقين (٢٣٠) ".

وإن كان بعض النقاد يركز على حياد القاص عند الوصف ، فيصفها في إطار الحدث دون تأثير أو تأثر، " حيث يقف موقف الحياد من الأحداث والشخصيات، فينقل الأصوات وينسق بينها ، ويصف الحركات الخارجية ، دون المساس بوجهة البطل ــ الشخصية ــ أو مسار الأحداث ... فهو بمنحى عن التأثير والتأثر الذي يجعله طرفاً في اللُّعبة ؛ لأنه يشاهد من الخارج فحسب ، ويحكي بتفصيل وصدق ، كأنه لا يعرف عن العالم القصصي الممتد إلا اللحظة

(٢٢٩) ما بين علامتي التنصيص مأخوذ عن كتاب (بناء الرواية) ص ٨٢ د / سيزا قاسم . بتصرف .
(٢٣٠) أركان القصة ص ٩٦ فورستر . سابق .

الآنية التي يشتغل بها ، فلا يمكنه إلا أن يصف ما يرى ، ويسمع دون أن يتجاوز ذلك لما هو أبعد "(٢٣١) .

فالأديب لديه الحرية الكاملة في الاختيار عند وصف الملامح لشخصياته سواء الداخلية أو الخارجية ؛ لأن مجال الاختيار متسع ، بحيث يتيح له القدرة الخاصة للكشف عن الشخصية ؛ لأنه مهموم ــ بالدرجة الأولى ــ في عملية الإبداع برصد هذه الملامح للشخصية الروائية .

فالوصف باعتباره تقنية إبداعية ، يقدم لنا هذه الشخصية كما أرادها المؤلف ، لا تحفل بالمفاجأة ولا تأخذها الإثارة ، ولا تركب مركب التغيير مهما كان الأمر!!(٢٣٢) "..

ولعل هذا ما كان طاغيا في لوحته التالية :

(٢٣١) راجع مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي ص ٤١ د / بو طيب عبد العالي ــ مقال بمجلة "عالم الفكر" عدد ٢١/٤ يونيه ١٩٩٣م. ــ الكويت .

(٢٣٢) الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية وقيمتها في العمل الفني ص ١٣٨ وما بعدها بتصرف . سابق .

اللوحة الثالثة
الإنسانية العليا

يقول الرافعي(٢٣٣) : من أوصاف النبي (ﷺ) إنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئا ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ؛ وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، ولا يَطوِي عن أحد من الناس بِشْرِهِ ، قد وسِعَ الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه ، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء ؛ يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ؛ وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه ، لا يؤيس راجيه، ولا يخيب عافيه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول؛ أجود الناس بالخير".

في هذا المقطع الوصفي يزاوج الرافعي القاص ــ تجاوزا ــ في توظيف تقنياته الإبداعية بين الأفعال الماضي والمضارع والمثبت منها والمنفي ، إلى جانب ضمير الغائب(٢٣٤)؛ لما لهما من حضورهم الإبداعي في تشكيل الرؤية الإبداعية، والقدرة على تقديم تلك الصورة الحيوية للنبي الكريم (ﷺ) بصوت العالم بكل أحوال أبطاله، وتفاصيلها ، وخصائصها النفسية والروحية ، وملامحها الخارجية والداخلية(٢٣٥) .. والرافعي هنا يمثل الذات المهيمنة التي توجه المتلقي نحو الاقتناع بما يلقى عليه وبما يريد أن يستحضره في ذهن المتلقي ، يتوسل بضمير الغائب لما له من رحابة حكائية ، قادرة على الإمساك بكل العناصر

---

(٢٣٣) وحي القلم ص : ٢ / ٣٢ .

(٢٣٤) سبق أن طرحنا الطاقات الفنية لتوظيف الضمير الغائب في هذه الدراسة ، في ص : ٣٨ تحت عنوان (الدراسة الفنية) .

(٢٣٥) راجع كتابنا : اللغة وتقنيات البناء القصصي. ص: ٣٢، وما بعدها ــ مطابع جامعة أم القرى ــ أولى١٤٣٠هـ ــ منشورات مركز بحوث اللغة العربية وآدابها ــ مكة المكرمة .

والمفردات التي يمكن توظيفها في عملية البناء الفني للشخصية التي تتحرك في الفضاء القصصي . كما يضمن هذا الضمير وجوده في كل وحدة سردية لا تغيب روحه عن الشخصية لكن بوعي وذكاء إلى جانب لغة قادرة على أداء وظيفتها الفنية التي تشكل الرؤية والبناء معا في العمل الأدبي .

وبالرغم من أن الرافعي ينجح إلى حد كبير في الإفادة من طاقات الفن القصصي في رسم شخصيته إلا أنه ــ وربما ذلك لكونه لم يكن قاصا بالمعنى الاحترافي ــ كثيرا وعلى عادة كُتَّاب المقالات الصحفية لا يثق بالقارئ أو المتلقي لفنه ، فيسعى إلى تفسير كل ما يطرحه من قيم أو طاقات فنية يمكن للمتلقي الذي استحثه كثيرا بأدواته وأيقظ وعيه بتفكيره وأشعل فتيل الخيال في ذاته لكي يلتقيا معا عن نقطة ما تحفظ للأدب رونقه وبهاءه وحيويته وخياله ، تراه يدلف لتفسير وشرح ما طرحه ودبجته قريحته وأعمل فيه خياله وتوهجت عبر لغته طاقات الإبداع فيه بطريقة ربما لو كان الرافعي قاصًا أو صنف ما يبدعه في فن القصة لاتهمناه بما ينال من موهبته في إنتاج هذا الفن . كما يعقب على الصورة الوصفية التي برع في حشد الكم الهائل من أوصاف النبي (ﷺ) : "على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهبا عنها ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغا إليها ولا إلى شيء منها؛ ففيها المعنى التام للإنسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق .. ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان([٢٣٦]) ".

" هي صفات إنسانها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية . فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته ([٢٣٧]) " .

" ولو جمعت كل أوصافه (ﷺ) ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية ، لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها،

(٢٣٦) وحي القلم ص :٢ / ٣٣ .
(٢٣٧) السابق ص : ٢ / ٣٣

لتتخرج به الأمة التي تبدع العالم إبداعا جديدًا، وتنشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله(٢٣٨) " .

الرافعي هنا يحاول الفكاك من أسر الوصف المباشر للبعد الجسماني / المادي للشخصية النبوية ، لأن مفهومه لنبوة النبي ورسالته أخذها من عالم الماديات إلى عالم يحاول ويدأب إلى أن ينفذ إلى الروح ؛ الكون الوجداني بآفاقه الإنسانية الرحبة ــ لو صحت العبارة ــ بل يطمح الرافعي إلى عالم ما فوق الإنسانية في النبي الكريم (ﷺ) ؛ إلى عالم النبوة المترع بالنقاءات والطهر والشفافية العذراء !! " إن وصف الشخصية بعيدا عن عالمها الجسماني الذي يجعل القارئ على مسافة قريبة من الشخصية من خلال تجميع المفردات ، ومعطيات الشخصية مكونا نسقا متخيلا وواقعيا في آن ، مشتبكا مع معطيات غير محدودة ، خصوصا إذا كانت هذه الشخصية على مستوى الواقع تمتلك قدرات التجاوز والحركة الدائبة ، وبما لها من معطيات لم تتوفر لغيرها ، وترقى إلى إمكانية التصور أو التخييل (٢٣٩) .. ومن هنا، يعتمد الراوي على الوصف وتأمل العلاقات الناتجة عن اللغة بالحركة النفسية والعاطفية في العملية السردية التي يقوم فيها التصوير عبر حركة الداخل وعلاقتها بالعالم الخارجي ، والشخصيات سيما شخصية الرسول (ﷺ) تحدث خلخلة في البنية الروحية والعاطفية عند المتلقي بما تملكه هذه الشخصيات من قدسية ونمذجة ومثالية ، وتحقق إشعاعا نفسيا أمام الفراغ والانكسارات الإنسانية المتوالية. ومن هنا ، يحرص المبدع على استدعاء هذه الشخصيات عبر واسطة الوصف لما لها من حضور وتجل يمثل عنصر اللذة والدفء والحنين المتروي، ومن ثم يتلذذ الراوي بوصفه لهذه الشخصيات وبخاصة الوصف الدينامي(٢٤٠)" .

---

(٢٣٨) السابق ص : ٢ / ٣٣

(٢٣٩) آليات السرد في الشعر العربي ص : ١٤١ بتصرف .

(٢٤٠) آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة ص : ١٢٤ بتصرف ــ د . مراد عبدالرحمن مبروك ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) عدد (١٠٠) مارس / ٢٠٠٠ م ــ القاهرة .

ولم يكتف الرافعي بذلك، بل يوغل في شرح فكرته عن النبي (ﷺ)، وخصائص صفاته وأخلاقه (ﷺ)، ويحاول في تدخل سافر أن يرينا بماذا كان يعني بما قدمه في هذه الزاوية من اللوحة التي يرسمها لشخصية النبي (ﷺ) فيقول:

" ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإني لأكاد كلما تأملتها أحسب هذا السمو قضاء وقدرًا بإنسان على الإنسانية كلها. وهي دليل على أنه الإنسان الذي خلق للدنيا لا لنفسه ؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناس من الحق ، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها، فما تكون في الوجود إلا لتقرر وجودها هي ، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها، فهو (ﷺ) إنسان ، غرس في التاريخ غرسا ؛ ليكون حدا لزمن ، وأولا لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه . وهو أبدًا قائم في مكانه الاجتماعي ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد في إثباته، وقد أصبح في الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس، فلن يتغير أو يمحى إلا إذا تغير أو محي المشرق والمغرب([٢٤١]) ".

" ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمائل من أمثالها ، لا نقرؤها أوصافا ولا حلية ، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبدع تصنيف وأدقه ، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يهتدي الفكر البشري لأحسن منه، ولا أصح ولا أكمل؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية، لا ينبغي أن تزيد أو تنقص، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها([٢٤٢])".

"ويكاد الارتباط بين أجزاء المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة؛ فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به، حتى لا موضع فيها لقلة أو كثرة؛ وهذا معنى قوله (ﷺ) : "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من معناته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجرى على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به ([٢٤٣]) " .

---

(٢٤١) وحي القلم ص : ٢ / ٣٣
(٢٤٢) السابق ص : ٢ / ٣٣ .
(٢٤٣) وحي القلم ص ٢ / ٣٤ .

" وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته (ﷺ) أن فيها دليلًا بينا على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها، كخلقة القلب الإنساني : نظامه حياته وحياته نظامه، وكأنما اعترته حالة نفسية كالتي تعتري القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر، يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة ؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان، مضبوطة بقياس؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يؤازر بعضها بعضا ، وكان قانونها الطبيعي أن تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجيء بها الشيء وضده معا: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمود الساكن، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضا، ويتم النقيض منها نقيضه ، وتجري كلها في قانون واحد : هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر في أشد من القيد، وكأن فيه غير طبيعته ([٢٤٤]) " .

" وهل ينبئك مجموع صفاته (ﷺ) إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات الوجود فتجاوز أن يكون منبعا للحياة إلى أن يكون حافظا للحياة في منبعها ؟ وتلك الحالة -كما مر بك- تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله ، لا وجود شهواته وغرائزه؛ وكذلك عاش نبينا صلى الله عليه وسلم فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة ، كأنه خلق تشده نية مستيقظة قد نبهها ما ينبه النفس من الغرر والخطر، ولعل هذا الشعور في نفسه (ﷺ) هو التفسير لقوله: "نية المؤمن خير من عمله". إلى أحاديث كثيرة مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يريد بها: أن نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل، فهو – ما دامت نيته على صلاحها وسره على إخلاصه- لا يعد اليسير من الشر يسيرا، ولا يرى الكثير من الخير كثيرًا؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كي لا يوجد، وألا ينتهي الخير كي لا يفنى؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبدًا، في حين أن عمله بطبيعته

([٢٤٤]) السابق ص : ٢ / ٣٤

الإنسانية يتناول الخير والشر جميعا، ثم لا يكون إلا عملا إنسانيا على نقص واضطراب والتواء(٢٤٥) ".

" وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تخرجه موجودًا من ذات نفسه، وتكسرت القالب الأرضي الذي صب فيه وتفرغه في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تغره الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحر فيها، والخاضع بنفسه لا المستقبل بها، والمقبور في إنسانيته لا الحي فوق إنسانيته، ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله، ويتصل بكل شيء اتصالا مبتورًا ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه (٢٤٦) ".

" ولذا كان أخص أوصافه (ﷺ) راجعا إلى خروجه من سلطان نفسه، فلا يغضب لها ، ولا يطلقها من الدنيا فيما تذمه أو تمدحه ، ولا يحب فيها ، ولا يبغض من أجلها، ولا يهاونها ، ولا يستلين لها في مأكل وملبس ، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية ؛ فأفراحها أحزانها، وآمالها أشواقها ، وأملاكها أعمالها ، وحسابها في طبيعتها، وحوادثها من العقل لا من الحواس ، وعظمتها إثبات ذاتها في غيرها، لا إثبات غيرها في ذاتها، وغايتها في الباقي لا الزائل، وفي الخالد لا الفاني، وما دام الحاضر متحركا فهو طارئ عابر أوشك أمور الدنيا زوالًا، والعمل له على مقداره في قلة لبثه وهوان أمره ، والاهتمام أبدًا بما وراءه لا به(٢٤٧)".

" وتدل صفات النبي (ﷺ) باجتماعها وتساوقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد؛ وهي أن جميع خصائصه النفسية مرهفة متيقظة، وهذا مما يندر وقوعه وإمكانه ؛ فإن الرجل من الناس ليكون حيا بالحياة ، ولكن جوانب كثيرة من نفسه قد طاح بها الموت ، أو هي مريضة وذلك أول الموت ؛ أو غافلة وذلك

(٢٤٥) وحي القلم ص : ٢/ ٣٤، ٣٥ .
(٢٤٦) السابق ص : ٣٦ .
(٢٤٧) السابق ص : ٢ / ٣٧ .

شبه الموت؛ أما الحي العظيم فهو الذي يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحي الأعظم فهو الذي يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياة فيملأ الحياة ، ويتمدد السر فيه ليريه حقائق الأشياء ويهديه ويدله ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور لبس اللحم والدم ، وبين تراب لبس الدم واللحم . وذلك لا يكاد يتفق إلا في مراتب أعلاها الامتياز في النبوة، ثم تدنو إلى النبوة؛ ثم تنزل إلى الامتياز في الحكمة؛ ثم تهبط إلى عبقرية الشعر. فأكبر الشعراء قاطبة كالنبي في معناه إلا أنه نبي صغير، وإلا أنه في حدود قلبه (٢٤٨) ".

" كان (ﷺ) متواصل الأحزان ، ولكنها أحزان النبوة تكسو الحياة فرح النفس الكبيرة؛ وهو فرح كله حزن وتأمل ، وفكرة وخشوع ، وطهر وفضيلة ؛ وما فرح أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شيء قليل من حزن النبي (٢٤٩) ".

" وكان دائم الفكرة ليست له راحة" إذ هو مكلف أن يصنع الإنسان الجديد وينفخ الآدمية فيه. وفكرة النبي هي معيشته بنفسه مع الحقائق العليا، إذ لا يرى أكثرها تعيش في الناس، وهي الفردية واستقلالها وسموها؛ لأنها إطاقة النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التي لا تطيقها، فدأبها أبدًا أن تبحث عما تستعبد له، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريح إليه من ذاتها. ومتى كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفراغها، فهي تفر منه إلى ما يلهيها عنه؛ ولكن العظيم يعيش في امتلاء نفسه ؛ وعالمه الداخلي تسميه اللغة أحيانا: الفكرة؛ وتسميه أحيانا: الصمت (٢٥٠) " .

" وكان (ﷺ) طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة" ومن الصمت أنواع : فنوع يكون طريقة من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يحيط به ؛ ونوع يغشى الإنسان العظيم ليكون علامة على رهبة السر الذي في نفسه العظيمة ؛ ونوع

(٢٤٨) وحي القلم ص : ٢ /٣٨
(٢٤٩) السابق ص ٢ / ٣٨ .
(٢٥٠) السابق ص ٢ / ٣٨ .

ثالث يكون في صاحبه طريقة من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم؛ ونوع رابع هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح في ساعة أعمالها؛ ونوع خامس يكون صمتا على دوي تحته يشبه نومًا ساكنًا على أحلام جميلة تتحرك(٢٥١)".

بعد كل هذا الشرح والتحليل الذي كان بمقدور الكاتب أن يستغني عنه أو يتحاشاه ، لولا أنه ــ وكما قلنا ــ يكتب مقالا وليس قصة فنية ، موظفا كثيرا من طاقات اللغة وإمكاناتها التي يغزلها وينسجها بعناية كالتشبيه أو الاستعارة ، وغيرها من الصور البلاغية التي لا بديل للرافعي كشأن جيله من إظهار مهارات الإبداع عندهم ، عبر توظيفها في تشكيل تجارب نتاج إبداعهم الفني . لكن كتابة الفن الذي رأى الكاتب أن يؤدي وظيفته الأدبية ، ويكشف عن عبقريته التي كانت نفسه تراه في مرآتها ، ألجمت إلى حد بعيد من قدراتها على توظيف كل ما أنتجته قرائح النظرية النقدية في إبداع فن القصة أو الرواية ــ ذلك الفن البكر وقتئذ ــ لكن ما يحمد للرافعي أنه نجح في توظيف طاقات الفن وخصوصيته في تشكيله للشخصية النبوية على النحو الذي ربما أتيح له ، وربما ارتضاه في حينه، بوصف الرافعي جندي الحراسة الأمين على تراث الأمة ، ونتاج حضارتها، وأدبها، ولغتها العربية، وخصائصه وقيمه ورصانته وعبقرية وجوده في عصره، وبيئته وجغرافيته الإنسانية والحضارية في الحياة .

وعلى هذا يخلص من كل ما طرح ، ويقدم عبر رحلته الإبداعية في تشكيل شخصية النبي الكريم (ﷺ)، وبلوحاته الثلاث التي يمثل كلا منها ركنا أو زاوية أو لونا ، يشكل ملمحا أو جانبا من جوانب الصورة الكلية ، التي عنيت بها تجربته الإبداعية .

" على هذا النمط يجب أن تفسر كل أوصافه (ﷺ) ، فهي بمجموعها طابع إلهي على حياته الشريفة ، يثبت للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسان الأفضل ، وأنه الأقدر، وأنه الأقوى(٢٥٢) " .

بهذه القفلة ــ إن صحت العبارة ــ يحمل الرافعي لوحته من على حامل المرسم ، ويضعها في حائط الإبداع في مرسمه ، الذي يمكن لكل منا نحن المتلقين أن نراها

---

(٢٥١) السابق ص ٢ / ٣٨ .
(٢٥٢) وحي القلم ٢/ ٣٨ .

على النحو الذي نريد ، وبالرؤية التي نحب ، وعلى الصفة التي ينجح الرافعي في الكشف عنها عبر مقالاته الأدبية التي دبجتها قريحته ، وشكلتها موهبته ، ورسمتها ريشته المبدعة .. !!

.....

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الشاقة والشائقة ، في عالم الإبداع الأدبي ، في مقالات مختارة من كتاب " وحي القلم " للرافعي ، الذي يتناول فيها " شخصية النبي محمد (ﷺ) بقلم المبدع الأديب . حاولنا التَّمَاس مع بعض هذه المقالات من جانب نقدي روائي تحليلي؛ لنستكشف الأدوات التي وظفها الرافعي ، وهو يمارس عملية السرد الإبداعي ، وتعرفنا عليه وهو أديب فن المقال في العربية في العصر الحديث ، وعرفنا كيف يتسنى للرافعي وهو في كتابة النثر الأدبي على القمة بين كتاب عصره، أن يلتقي عند نقطة ما مع عالم كتابة القصة والرواية ، في عصرنا الحديث. لكن ليس بمفهومها الغربي الذي عُرفت به لدى كثير من كاتبينا في الإبداع الروائي والقصصي العربي ، ولكن بمفهومه هو ، الذي يدنو بها من طبيعة الحكاية العربية، وما كان يسطره أدباء عصور الازدهار الأدبي والطزاجة الحضارية في التاريخ والحضارة العربية ، حيث نتاجهم من كتب المواعظ والقصاص والمذكرين !! ، فهو ــ الرافعي ــ نديم مدرسة الجاحظ وابن قتيبة وصاحب الأغاني ، وغيرها من عيون التراث الأدبي العربي ، مهد الرصانة، وتاج الأصالة ومراد الفكر ومؤئل الإبداع وآية الجمال !!.

حاولنا خلال الدراسة التي جاءت في قسمين : الأول منها تناولنا فيه بالدراسة النظرية الحياة والإبداع ، وانتظم تحت هذا العنوان ، عددا من الموضوعات، تناولت فيها : حياته ونشأته ، وأهم مؤلفاته التي حفظت لنا تجاربه الإبداعية والفكرية ، وموقف الرافعي من كتابة القصة ، ومنهجه في كتابتها ، وطريقته في رسم الشخصية .

ثم في القسم الثاني : وخصصته للدراسة التطبيقية (الفنية): حيث مارست عملية التحليل والنقد، وأنا أتناول جوانب مضيئة وملامح مشرقة عبرت عنها كتابات الرافعي، في رسمه وتشكيله لفضاء أو عالم الشخصية النبوية لسيدنا محمد(ﷺ)، عبر ثلاث لوحات كل منها كانت تشع في زاوية تختلف عن الأخرى؛ كل منها كانت تقدم دورا مهما في إبراز الخصوصية النبوية، والتفرد الإنساني والحضاري للنبي الكريم (ﷺ)؛ كي يصنع ما نسميه بلغة النقد المعادل الموضوعي للقيم الإنسانية، والرفعة والرقي البشري في أسمى مراتبه، يعرضها وهي تمارس حضورها الإنساني والوحيي " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ([٢٥٣])"؛ ليقتدي بها المسلم المعتنق لدين الإسلام، والمقتدي بنبيه الكريم(ﷺ) .

فالرافعي الأديب الملهم يحاول ــ كطبيعة أدائه الأدبي ــ أن يصنع الأنموذج الإنساني القريب، والمدله في ترسم خطى النبي (ﷺ)، إذ الأدب ــ وكما وضحنا ــ له وظائفه المعرفية والأخلاقية والبنائية في المجتمع ، إلى جانب السمو، والارتقاء بذوق الناس، والإمتاع الوجداني الذي يستلهم قيم الإسلام وطاقاته الحيوية في عملية الإحياء المجتمعي "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا([٢٥٤])"، كما أن الأديب لابد أن يكون في ممارسته للعملية الإبداعية واعيا ومدركا لقيمة ما يبدع وخطره على المجتمع الذي يتلقى إبداعه .

بهذه المسئولية الإبداعية حاولت أن أتماس مع بضع مقالات من كتاب" وحي القلم"، أجوس من خلالها عالم الرافعي، والذي أشهد أنني برغم الجهد والوقت الذي بذلت إلا أنني أعرف أنني ما زلت أقف على حافة النهر، أتهيب أن أمد قدمي خشية ألا أستطيع أن أقف منه على شيء !! الرافعي بحر عباب، وأدبه محيط شاسع المدى عميق الأغوار، يحتاج الغواص الماهر الذي يمكنه أن يحظى بشيء من لؤلئه !! .

توصلت الدراسة لبعض من النتاج التي سعت لتحقيق بعض من أفكارها ، من أهمها :

---

(٢٥٣) سورة الكهف جزء من الآية : ١١٠ .
(٢٥٤) سورة المائدة جزء من الآية : ٣٢ .

* الرافعي لم يرفض كتابة القصة أو يهاجمها في نقده . بل كان يسعى لأن تطأ قدمه تلك التربة الخصبة الجديدة إلا أن الظروف قعدت به ([٢٥٥]) .

* أفاد الرافعي في كتابة مقالاته من تقنيات وطاقات ووسائط فن القصة والرواية، ووظفها في ممارسته الإبداعية، بالقدر الذي لم يحول مقالاته من جنسها النثري وصفتها الأدبية ، إلى فن القصة .

* الرافعي كان له تصوره الإبداعي في كتابة القصة الذي كانت تعرف في التراث العربي بالحكاية ، فكان يريد لقصصه ألا يتجاوز فنون التراث العربي الذي شغف به طيلة حياته. ومن ثم، كان يتحرج أن يعلن نفسه كاتبا للقصص الجديد، مثل أولئك المتغربين الذين خاضوا المجال وكتبوا فيه .

* مقالات الرافعي الذي تناول فيها شخصية النبي (ﷺ) نجح إلى حد بعيد في توظيف طاقات السرد الإبداعي التي يعتمد عليه بصورة أساسية كُتَّاب القصة والرواية .

* اهتمام الرافعي المتزايد باللغة العربية وثراءها ، وإدراكه لقيمتها ، وقدرةَ ألفاظها/ أساليبها على حَمْل معانٍ يعبر الأديب من خلالها عن مشكلات الحياة ، وهموم الواقع الإنساني وآماله وآلامه، وما يطرأ على المجتمع من مشكلات وتطور وازدهار تقني أو حضاري أو إبداعي. فرأى ضرورة الاعتماد على المعاني والألفاظ، والصور والأخيلة. فالاهتمام باللغة فرض ديني عليه أن يعنى به ولن يصلوا إلى النيل من الإسلام إلا من خلال الطعن في اللغة العربية والنيل من قدسيتها .

* التأكيد على القيم الجمالية في الأدب والفنّ ، ومدى اتصالها بالحياة ، حيث جعل الإمتاع واللذَّة على اختلاف أنواعها من عقلية وحسية وروحانية

---

(٢٥٥) ذكر الدكتور كمال نشأت: "أن الرافعي تقدم بقصة لإحدى المسابقات التي أقامتها مجلة "المقتطف" إلا أن اللجنة الفاحصة للقصص المقدمة رفضت قصته ، متعللة بأنها تفتقر للمسة الفن ، ولأن المؤلف ظاهر الشخصية فيها بمواعظه وخطبه !! إلا أن الرافعي أرجع أمر ذلك الإخفاق إلى أن (مي زيادة) هي السبب ؛ لأنها كانت عضوا باللجنة ، وكانت القطيعة بينهما ." مصطفى صادق الرافعي ص : ١١٣ .

ووجدانية، من أهمّ غايات الأدب ، واهتمامات الأديب ، في إدراكه للجمال الذي يصاحب عملية التذوق الفني .

* أنَّ الأديب الحقيقي عند الرافعي هو المبدع لا المقلد و لو كان في زمن الجاحظ، الذي يسمو بفنه ؛ ليدرك حقائق الجمال في الإبداع بغض النظر عن حداثته أو قدمه، وذلك كله طلبًا للكمال والإبداع، الأديب الحقيقي عنده : هو الذي يعرف مقومات حرفة الإبداع ، ويعرف جماليات إتقان الصياغة اللغوية ، في أوج رصانتها وأصالتها ؛ لينفذ إلى أسرار أسلوب البياني ، وجمال صوره وتعابيره الفنية .

تلك كانت بعضا مما توصلت إليه الدراسة ، وهناك غيرها الكثير مبثوث في متنها ، آثرت أن أحفز القارئ على متابعتها في مظانها من فصول الدراسة ، وحسبي شرعت بابا نحو ذلك الأديب المظلوم ، والذي لم يأخذ حظه كمعاصريه من الاهتمام والدرس ، وحسبي كذلك أن فتحت نافذة جديدة نطل منها معا على أدبه وإبداعه ، متسلحين بعطاءاته وإسهاماته في الأدب والدرس النقدي. ورؤية جديدة تحاول أن تكشف عن جانب ربما لم يلتفت إليه باحث من قبل. سيما، الاهتمام بالغة ووسائطها وطاقاتها أصبح مقصدا لكثير من الدراسات الأدبية، وتوجهات فلسفات مذاهب النقد والإبداع في جامعاتنا مما يسمونه "النقد اللغوي".

الله (عزوجل) أسأل أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يجعل ما نسهم به من فيض كرمه ، نافعا لنا ولرواد المعرفة وفي ميزان حسناتنا إن أصبنا ، ولو كانت الأخرى فحسبي اجتهدت ، وللمصيب أجران وللمخطئ أجر. ونسأله (سبحانه) أن يعصمنا من الذلل ، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى . وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن سلك طريقه ، واتبع منهجه ، وسلم تسليما كثيرا .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

* القرآن الكريم (جل من أنزله) .
* تاريخ آداب العرب ــ مصطفى صادق الرافعي . مكتبة الإيمان ــ أولى ــ ١٩٩٧م ــ المنصورة .
* حديث القمر ــ مصطفى صادق الرافعي ــ دار الكتاب العربي ــ ثامنة ــ ١٩٨٢ م ــ بيروت
* ديوان الرافعي ــ مصطفى صادق الرافعي بشرح ابن عمه ؛ محمد كامل الرافعي نسخة مصورة عن الأصل الذي نشرته مكتبة الجامعة بالإسكندرية ــ مكتبة الإيمان ــ المنصورة .
* المساكين ــ مصطفى صادق الرافعي ــ مؤسسة هنداوي ــ ٢٠١٣ ــ مصر.
* وحي القلم (ثلاثة أجزاء) ــ مصطفى صادق الرافعي ــ تحقيق سعد كريم الفقي ــ مكتبة الإيمان ــ دت ــ المنصورة .

ثانيا : المراجع :

* الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية ــ د/صالح عبد الله العريني منشورات جامعة الأمام محمد بن مسعود/المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) ــ المملكة العربية السعودية .
* اتجاهات الرواية المصرية ــ د. شفيع السيد ــ مكتبة الشباب١٩٨٧ القاهرة.
* الأديب الأصم : كمال سعد محمد خليفة ــ مقال منشور بمجلة منار الإسلام عدد(٢) يولية١٩٩٤ ــ أبو ظبي/الأمارات .
* الأدب الإسلامي : مقاربات في النظرية والإبداع ــ د . كمال سعد محمد ــ طبعة خاصة ــ ٢٠١٥م ــ أسيوط .
* أركان القصة فورستر. ترجمة : كمال عياد ــ دار الكرنك ــ دت ــ القاهرة .
* الإسلامية والمذاهب الأدبية ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ رابعة ــ ١٩٨٥م ــ بيروت .
* الإسلام و حركة الحياة ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ دت ــ بيروت.

* أصالة التجديد وتجديد الأصالة عند الرافعي ص:٥ حسن الأمراني . مقال منشور بمجلة "الأدب الإسلامي"العددان (٤٣،٤٤) المجلد (١١) ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م عدد خاص بالرافعي .
* الإنسان بين المادية والإسلام ــ محمد قطب ــ دار الشروق ــ تاسعة ــ ١٩٨٨م ــ القاهرة.
* آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة ــ مراد عبد الرحمن مبروك مبروك ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ كتابات نقدية ــ عدد (١٠٠) مارس ٢٠٠٠م ــ القاهرة.
* آليات السرد في الشعر العربي المعاصر ــ د. عبد الناصر هلال ـــــ مركز الحضارة العربية ــ أولى ــ ٢٠٠٦م ــ القاهرة .
* بناء الرواية عبد الفتاح عثمان ــ مكتبة الشباب ــ دت ــ القاهرة .
* بين الأدب والتاريخ ــ د/قاسم عبده قاسم ــ دار الفكر للدراسات والنشرــ
* أولي ــ ١٩٨٦ ــ القاهرة.
* التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحارــ د/صفوت يوسف زيد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٨٥ ــ القاهرة.
* حاجة الإنسان إلى ظهور الإسلام ــ د/ أحمد السايح / الدار العربية للنشرـــ أولي ــ ١٩٩١م ــ القاهرة .
* حركة البطل في الرواية الإسلامية ــ د. كمال سعد محمد ــ دار طيبة للطبع والنشر ــ أولى ــ ١٩٩٩م ــ أسيوط .
* حياة الرافعي ــ سعيد العريان ــ مطبعة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٣٩ م ــ القاهرة .
* دراسات في القصة والمسرح ــ محمود تيمور ــ مكتبة الأدب ــ القاهرة
* دراسات في النفس الإنسانية ــ محمد قطب ــ دار الشروق ــ العاشرة ــ ١٩٩٣م ــ القاهرة .
* دراسات في نقد الرواية د . طه وادي ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ دراسات أدبية ــ ١٩٨٩ ــ القاهرة .

* الرافعي ومي ــ عبد السلام هاشم عبد الحافظ ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ ١٩٦٤م ــ القاهرة .
* الرافعي والانتصار للعربية ــ على أبو المكارم ــ دار النشر للثقافة ــ أولي ــ ١٩٩٠م ــ طنطا .
* رحلتي مع الأدب الإسلامي ــ نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة ــ أولي ــ١٩٨٥ ــ طنطا .
* ــ الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ــ د. قاسم عبده قاسم ــ د.أحمد إبراهيم الهواري ــ دار المعارف ــ ١٩٧٩ــ مصر.
* الشخصية الإسلامية بين الأصالة والتبعية ــ عاطف شحاتة زهران ــ مقال في مجلة الوعي الإسلامي عدد (٢٥٩) ــ ١٤٠٦هـ ــ الكويت.
* الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة وقيمتها في العمل الفني ــ كمال سعد محمد ــ طبعة مأخوذة عن أصل رسالة الدكتوراة التي نوقشت في ١٩٩٦م في كلية اللغة العربية ــ أسيوط .
* الشخصية في سواتها وانحرافها ــ د/ مصطفي فهمي ــ المكتبة الثقافية عدد"١٦٣) ــ الدار المصرية القاهرة.
* صورة المرأة في الرواية المعاصرة ــــ د/ طه وادي ــ مركز الشرق الأوسط/القاهرة.
* الصورة والبناء الفني ــ عبد اللطيف الطاهر الزكري ــ مقال منشور في مجلة الفيصل عدد(٢٢١) ذو القعدة ١٤١٥هـ ــالمملكة العربية السعودية .
* عمالقة عند مطلع القرن ــ د. عبد العزيز المقالح ــ منشورات دار الآداب ــ أولى ــ ١٩٨٤م ــ بيروت .
* عن البطولة والبطل من المنظور الإسلامي ــ د/محمد أحمد العرب ــ مقال منشور بمجلة منار الإسلام عدد"٨" لسنة (٥) شعبان /١٤٠٠هـ ــ ابو ظبي /الأمارات.
* فنون الأدب (المسرحية) ــ عبدالقادر القط ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٧٨ م ــ بيروت.
* في الأدب ــ توفيق الحكيم ــ دار الكتاب اللبناني ــ ١٩٧٣ ــ بيروت.

* في الغزو الفكري ــ أحمد عبد الرحيم السايح ــ كتاب الأمة عدد(٣٨) رئاسة المحاكم الشرعية ــ الدوحة / قطر.
* فن القصة د/ محمد يوسف نجم ــ دار الثقافة ــ دت ــ بيروت .
* في نظرية الرواية ــ عبد الملك مرتاض/عالم المعرفة عــدد(٢٤٠) المجلــس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت .
* قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر ــ د/ سمير حجازي ــ مكتبة مدبولي ــ١٩٩٠ــ القاهرة .
* قراءة الرواية ــ د/محمود الربيعي ــ دار المعــارف ــ ثانيــة ــ ١٩٧٤م ــ القاهرة .
* القصة السيكولوجية ــ ليون إبدال ت ــ محمود السمرة ــ المكتبة الأهليــة ــ ١٩٥٩م ــ بيروت.
* القصة والفنون ــ السعيد الورقي ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة.ـــ مكتبــة الشباب ــ عدد (٥٧) يونية ١٩٩٧م ــ مصر .
* قضايا شغلت فكر الرافعي ــ مقال في مجلة (منار الإسلام) للمؤلف . كمال سعد محمد ــ عدد (٣) أغسطس ١٩٩٤م ــ أبو ظبي/الأمارات.
* قضايا النقد الأدبي المعاصرــ د/محمد ذكي عشماوي ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٥م ــ الإسكندرية .
* قيم جديدة للأدب العربي ــ د. عائشة عبد الرحمن ــ دار المعرفة ــ أولــي ــ ١٩٦١م ــ القاهرة.
* اللغة وتقنيات البناء القصصي ــ د . كمال سعد محمد خليفة ــ مطابع جامعــة أم القرى ــ أولي ــ١٤٣٠هــ ــ مكة المكرمة .
* مدخل إلى الأدب الإسلامي ــ نجيب الكيلاني ــ كتاب الأمة عدد (١٤) رئاســة المحاكم الشرعية ــ الدوحة ــ قطر .
* مصطفي صادق الرافعي ــ كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا ــ د/مصطفي الشكعة ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٨ ــ بيروت.
* مصطفي صادق الرافعي ــ كمال نشأت ــ دار الكاتب العربي للطباعة والنشــر ــ ١٩٦٨م . مصر .

* معركة الإسلام والرأسمالية ــ سيد قطب ــ دار الشروق ــ الحادية عشــرة ــ ١٩٩٠م ــ القاهرة.
* مفهوم الرؤية الشعرية في الخطاب الروائي ــ د/أبو طيب العالي مقال بمجلــة عالم الفكر عدد ٢١/٤ يونيه ١٩٩٣م ــ الكويت .
* مقومات الشخصية المسلمة ــ (مقدمة) عمر عبيد حسن ــ كتاب الأمة عــدد (٢٩) رئاسة المحاكم الشرعية ــ الدوحة / قطر.
* منهج الفن الإسلامي ــ محمد قطب ــ دار الشروق ــ سادســة ــ ١٩٨٢م ــ بيروت .
* منهج التربية إلي ظهور الإسلام جزأن/دار الشروق/الثالثة عشر/١٩٩٢م/مصر.
* نظرية الرواية في الأدب الانجليزي الحديث ــ مجموعة من الكتاب ــ ت/أنجيل بطرس سمعان ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ١٩٧٨م ــ القاهرة.
* النقد الأدبي الحديث: مقاربات في المفهوم وآليات الإبداع ــ د/كمال سعد محمد ــ طبعة محدودة ــ ٢٠١٥م ــ أسيوط.
* النقد الفني : جيروم ستولينتزــ ترجمة : فؤاد زكريا ــ الهيئة العامة للكتاب ــ ثانية ــ ١٩٨٥م ــ القاهرة .
* النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية ــ د/محمد غنــي هــلال ــدار نهضــة مصرــ القاهرة.
* الواقع والتاريخ مقال للدكتورة اعتدال عثمان منشور بمجلة فصول ٢/٣ يوليو ١٩٨٢ ــ مصر.
* الواقعية الإسلامية في الأدب والنقدــ د/أحمد بسام ســاعي ــ دار المنــارة ــ أولى ــ ١٩٨٥م ــ جدة .
* الوسطية العربية :مذهب وتطبيق (الكتاب الثاني) د/عبد الحميد إبراهيم ــ دار المعرفة ــ١٩٨٦ ــ مصر.

تم بحمد الله وتوفيقه

المحتوى

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٤١٥٩
* القسم الأول : الحياة والإبداع :	٤١٦٦
* الرافعي : النشأة .. الحياة .	٤١٦٩
* الرافعي والإبداع الأدبي .	٤١٧٦
* الرافعي وفن القصة .	٤١٨٧
* الرافعي و إبداع الشخصية.	٤٢٠١
* القسم الثاني : الدراسة الفنية في مقالات وحي القلم للرافعي :	٤٢١٦
* اللوحة الأولـــــى : الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام .	٤٢١٩
* اللوحة الثانيــة : حقيقة المسلم .	٤٢٤٢
* اللوحة الثالثـــــة : الإنسانية العليا .	٤٢٦٨
* الخاتمة	٤٢٧٦
* المصادر والمراجع	٤٢٨٠
* المحتوى	٤٢٨٥